حُبُّ قَلْب

جانيت كامل

الكتاب: حُبٌّ قلب
المؤلف: جانيت كامل

رقم الإيداع: ١٢٧٨٤ / ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-493-891-7
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٣

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

حُبٌّ قلب

رواية

جانيت كامل

إهـداء

ليس كل من يمتلك عيونًا يرى،

وليست كل القلوب تنبض بإحساسٍ ورحمة.

إلى كل أولئك الذين يعشقون مخلوقات فروية،
تُسَمى القطط...

ألف تحية وسلام...

Jana

مقدمة

عالمٌ مريض، تدنِّسه الأفكار الشيطانية، عالمٌ يسوده الفساد والمصالح الفردية. عالمٌ يديره الظلم والاستبداد والنقمة. عالمٌ مجرّد من المشاعر الإنسانية. مجتمع يُعمِّم الجشع البشري، مجتمع مجرد من الاستقرار والطمأنينة والكرامة والحرية.

وا حسرتاه على قِيمٍ ومبادئ مُستشهدة ومدفونة، ومنطقٍ معوّجٍ وأخلاقٍ مُبعدة منفية، وصدق الأحاسيس وعُمق المشاعر المفقودة.

أُناس، متنقلين من مكانٍ إلى آخر، مجوفي الرأس، متحجري القلوب، مجرد هياكل متحركة، مجرد دمُى متحركة.

حسنًا، وأين الإنسان؟ أين العقل؟ أين الفكر؟ أين الثقة؟ أين وأين إلى ما لا نهاية؟ أين أضع علامة الاستفهام؟، أين الضمير؟ أين أجد ما يُسمى الوجدان. فبين عالم افتراضي ومسرح من العظام، لا حاجة للإنسان.

فلله يا محسنين لله، إحسان قليل في سبيل الإنسانية! إحسان في سبيل الاستمرار في الحياة، في سبيل إنعاش المصداقية، في سبيل العطف والمحبة، في سبيل الشفقة

والقليل من الرأفة لبعضنا البعض ولسائر المخلوقات؟

لسنا بشرًا لإثبات مَنْ منا الأقوى. خُلقنا بشرًا لنتعلم، لنتطور، لنبني ونزدهر. فما بالنا نتخلف ونتراجع وننهدم وننحسر؟

ما بالكم أيها البشر تمزِّقون أشلاء بعضكم؟ ما بالكم تتقاتلون فيما بينكم؟ ما بالكم تُلحقون الأذى بالمساكين والضُعفاء؟ ما بالكم تتغاضون عن خالقكم ربكم وإلهكم؟

أين الإيمان؟ أين التقوى؟ أين مخافة الله؟ أين خالق الأكوان منكم؟ أين المحبة؟ أين حُبُّ العطاء؟

ففي النهاية، ليس الإنسان سوى ذكرى، تُلعن أو تُبارك بعد انقضاء الزمان. قوّي روحك، تسلَّح بقوة الإيمان، فإن وجودك محدود وعمرك محسوب، وإن الجمال الحقيقي ينبع من الروح، فمن العمق يُستخرج المعدن الأصيل الذي لا يضارعه أي شيء رونقًا وبهاءً.

إن الحياة، أكثر من ملذات ومظاهر وجسد، وما يميِّزنا عن بقية المخلوقات، هو العقل، من أجل أن نُحب ونُشفق على باقي الكائنات، من أجل أن نعيش في الوضوح، من أجل أن نعيش في الصفاء. تحرَّك، تقدم، كافح من أجل الوصول إلى ذاتك، من أجل التعرف عليها، ففي المعرفة تجد الهناء.

ولا تعتقدنَّ بأن الحياة صفحة تُطوى، فإنك لست سوى مجرد كلمة صغيرة في مُجلّد الحياة، وإنها أعظم من عُمرٍ

يمضي تقضيه بالتهكُم وأذية الغير والغناء. فإن وجودك أهم من عدد الأيام، فإن كان صُبحًا أو مساءً، لا تدع أيامك تمر، لا تسمح بأن يضيع عمرك هباءً.

حياتُك لك، ملكك القرار، بين بابٍ وآخر يمكنك أن تختار.

تمتلك الحل، ففي قلبك المفتاح، وأمامك بابان: باب الجنة وباب النار. الأول هو النور والحق والحياة، والثاني عدة عناوين لنهاية واحدة هي الشقاء... تذكَّر يا إنسان.

تمهيد

سُئِلْتُ عن الذي أفعله، فقلتُ:
أكتبُ قصة عن عشق قطة.

سخروا مني استهزاءً قائلين:
– اكتبي عن الحب، عن الغرام، عن حالة هيام بين شابٍ وفتاة، عن علاقة بين رجلٍ وامرأة، اكتبي عن عشق البشر.

تبسمتُ تلك الابتسامة التي قد لن يفهمها الكثيرون، وقلتُ:
– لا ينفع، فالحبُّ مجرد حالة في ظرف معيّن، وعندما ينتهي الظرف؛ تنتهي معه الحالة. فحياة البشر معقدة جدًا، وهم بطبعهم الغدر والأذى وحُبُّ الأنا، وتشويه الأشياء الجميلة. فعشقهم كاذب وغرامهم مخادع وحبهم متحوِّل وليس مفهومًا ولا يدوم، ولا يتبقى منه بعد حين، سوى الألم والندم والهموم.

قد أكون جاهلة، إنما أمتلك قلب شاعرة وعقل فيلسوف وعيونًا باصرة... إنني جاحدة، حاقدة، أكره البشر بما يمثلونه من جهل وظُلم وشرّ، ولستُ نادمة. أكره السفهاء أكره النفوس القاسية السوداء المستهترة، أكره السُّخفاء...

إنني عجوزٌ شمطاء، أمتلك روحًا حُرّة...

إنني، في الأصل، هِرَّة.

في يومٍ من أيام تموز اللاهب، وبعد نهار طويل قضيته في البيت بين تنظيفٍ وجلي وغسيلٍ وتحضيرِ الطعام والركض وراء قِططي الأربع، وبينما النهار شارف على نهايته وأطلَّ المساء حاملاً معه بعض النسمات العليلة؛ حان وقت تناول فنجانٍ من القهوة لتجديد النشاط استعدادًا لجولة أخرى من تحضير العشاء والاهتمام بأمور أولادي الأربعة وقِططي الأربع، بين إطعامهم وتنظيف حمامهم الخاص وتجهيزهم للنوم، قبل أن أختم نهاري بإطعام قطة أهتم بها منذ إن كانت لاتزال هِرَّة صغيرة. وها هي الآن قد أصبحت أُمًّا بدورها وتهتم بأولادها وترعاهم وترضعهم وتلازمهم طوال الوقت؛ رغم بلوغهم قرابة الأربعة أشهر.

وكعادتها كل ليلة في تمام الساعة الثانية عشر عند منتصف الليل، تنتظرني هي وأولادها من أجل العشاء تحت شرفة منزلي، فأرمي لهم الطعام ويتناولونه بسرعة ونهم يُدمع عيوني في كل ليلة، فكم هو صعب علي تركها في الشارع هي وأولادها عُرضةً لشتى أنواع المخاطر، إلا أنه ليس بيدي حيلة، إذ أن قططي لا تتقبل وجود أي دخيل بينهم، لهذا أحاول قدر المستطاع مساعدة قطط الشارع وإطعامها ثلاث وجبات أساسية في اليوم؛ إن أمكنني ذلك؛ فأحيانًا أواجه صعوبة في إطعامها، خصوصًا أن بعضًا من جيراني لا يحبون القِطط ويهاجمونها لإبعادها، ويصرخون

في وجهها أو يرشقونها بالحجارة أو بأي شيء صلب... والبعض يخاف منها ويتصرف تصرفات خاطئة بحقها، تصرفات مبالغًا بها، تصرفات حقًا حقيرة لا تمت للإنسانية بصلة، إذ كيف يجوز أن تعامل هكذا مخلوقات بريئة بمثل هكذا معاملة، إن الجهل لدى بعض البشر مؤذٍ كثيرًا...

وفيما أعددت قهوتي وخرجت إلى الشرفة لاحتسائها طمعًا ببعض الراحة والهدوء، وإذ بسيارة الجيران تتوقف، وها هم قادمون لقضاء نهاية الأسبوع في الجبل طلبًا لبعض البرودة هربًا من حَرِّ الساحل وقيظه في مثل هذا الوقت من السنة.

وكعادتي أجلس دون أن أنظر نحوهم تجنبًا للإحراج، فلا معرفة شخصية بيننا، وأستمع لبعض الموسيقى الهادئة التي هي معزوفة مدتها ثلاثون دقيقة مخصصة للقطط التي تعاني من التوتر والخوف أو تمر بمرحلة صعبة كالإحباط والقلق، إذ أن القطط كما البشر تمر بفترة من التعب والإرهاق ويجب عدم تركها وحدها تعاني، وإنما ينبغي الإسراع بالتدخل المباشر لمساعدتها ومحاولة إخراجها من حالتها، فالقطط مخلوقات حساسة جدًا وإن أُهملت فإنها تحزن وقد يؤدي شعورها بالوحدة إلى الانعزال الذي بدوره قد يُضعفها نفسيًا وبالتالي يؤدي لمرضها.

سكبتُ القهوة، وبينما أحمل الفنجان لارتشاف أول

رشفة؛ لفتت انتباهي حركة على شرفة الجيران، وإذ بابنتهم اليافعة بعمرها الذي يقارب الرابعة عشر على ما أعتقد؛ تحمل بين يديها قطة صغيرة جدًا، وتضعها على الشرفة وتدخل سريعًا إلى داخل البيت، ثم تغلق الباب تاركةً الهرة وحدها.

أخذت الهرة في المواء بشكل متواصل تريد الدخول. حيَّرني تصرف الفتاة، لماذا فعلت هذا؟

فكَّرتُ أنهم لا بد منهمكون في توضيب أغراضهم فور قدومهم، ولاحقًا سوف يفتحون الباب ويُدخلون القطة الصغيرة، إذا يجب عدم تركها وحدها على الشرفة خاصةً أن الشرفة مكشوفة ويمكن حدوث أي مكروه لقطة بهذا العمر وحدها من دون مراقبة أصحابها لها والاهتمام بها.

بدأ مواء القطة يزداد حدةً وبشكل متواصل، وكانت تقفز على الباب الموصد تحاول الدخول ولا تستطيع، فتعاود المواء بشكل متقطع وكأنها تبكي.

أحزنني المشهد وتساءلت عن سبب هكذا تصرف، وما عدتُ أتحمل صوت بكاء القطة، فحملت قهوتي وانتقلت لشرفة المطبخ من الجهة المعاكسة لشرفة الجيران بحيث لا يصلني مواء القطة ولا أراها.

لم أستطع إكمال قهوتي فأهملتها وتوجهت إلى غرفتي أنظر من النافذة حيث يمكنني رؤية ما يحدث على شرفة

الجيران من دون أن يلحظني أحد... وها هي القطة الصغيرة تقف على حافة الشرفة من الداخل تتَّبع حركة المارَّة وتستمع للأصوات من حولها. حسنًا لا بأس فقد هدأت وما عادت تموء، وقد توقفتْ عن البكاء، فلا بد وأن الفتاة ستأتي قريبًا وتدخلها إلى البيت.

راقبتُ القطة قليلاً وقد ناهزت الساعة العاشرة ليلاً، ومع مرور الوقت أزدادُ حيرةً وتساؤلاً عن سبب ترك هِرة صغيرة وحدها على شرفة في الطابق الثاني من دون اهتمام أو رعاية، فمن المحتمل أن تقفز، أو قد تقع إن هي تسلقت حافة الشرفة، فمن المحتمل ان تلاحق حشرةً ما وتحاول اصطيادها، ومعروف عن القطط حشريتها الكبيرة وسعيها وراء أي شيء متحرك. فبالرغم من صِغر سِنها إلاّ انها مكتشفة بطبعها وتسعى دائمًا وراء المغامرات والاكتشافات الجديدة.

بدأت القطة بالفعل باكتشاف محيطها الجديد رغم صغر المسافة التي تحتلها الشرفة. فكل ما يحيط بها هو تحدٍّ جديد بالنسبة لها.

وبينما أُراقب القطة خِلسةً؛ أتت الفتاة وحملتها ودخلت وإياها إلى البيت وأقفلت الباب. وهنا تنهدتُ تنهيدة راحة بأن القطة لم تعد وحدها. ثم أسرعتُ إلى المطبخ لتحضير العشاء، فليس لدي سوى دقائق معدودة قبل وصول ابنتيّ

من أشغالهما.

وصلت الفتاتان إلى البيت وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة بقليل، لا بأس فلا زال عندي متسع من الوقت لتحضير الطعام لقططي وتنظيف حمامهم والتفرغ للقطة الأم وصغيريها لإطعامهم وليطمئن بالي بأن أمهما معهما تحميهما وأنهما أكلا جيدًا وشبعا، وبعدها تصحبهما أمهما للنوم بمكانهما الخاص الآمن... ووقتها فقط أخلد للنوم.

أنهيت واجباتي، وتوجهت الفتاتان إلى سريريهما. وقططي تناولت طعامها ودلفت للنوم كلٌّ في مكانه المعتاد، وأنا بدوري أنهيت توضيب المطبخ وحضَّرت طعام القطة وصغيريها، وكان عشاءهم الليلة عبارة عن لفائف خبز عربي باللحم والخضار كنت قد أعددتها سابقًا.

خرجتُ أنتظر انطفاء أضواء بيوت الجيران معلنةً خلودهم للنوم إفساحًا للمجال أمامي لرمي الطعام للقطط من دون أن يراني أحد! ليس حرجًا من الناس، بل خوفًا على تلك القطة المسكينة وأولادها من ان يضربها أحد أو يهاجمها وأولادها بأشياء حادة.

رميتُ الطعام، وأقبلت عليه القطط الصغيرة أولاً فدائمًا، ما تترك الأم الطعام لأولادها لكي تتأكد من أنهم آمنون وتجلس قبالتهم تراقب المكان حولهم خوفًا من اقتراب أحد أو أيّ شيء قد يُسبِّب تهديدًا أو يشكِّل خطرًا

على صغارها، وبعد تأكدها من خلو المنطقة من أية مخاطر وبأن صغارها اكتفوا وشبعوا؛ تأكل هي.

أشعلتُ سيجارة بانتظار فروغ القطة من تناول طعامها واصطحاب أولادها للنوم وإذ بتلك الفتاة تخرج ثانيةً حاملةً تلك القطة الصغيرة وترمي بها على أحد المقاعد الموجودة على الشرفة قبل أن تدخل مُسرعةً إلى الداخل وتغلق الباب دون القطة، وأطفئتْ جميع الأضواء واختفت.

وقفتُ أنظر من دون أن أرى أي شيء... صدقًا... صُدِمت، والصدمة أبعدت النعاس عن عيوني! ومن دون وعي أشعلت سيجارة أخرى وأنا لا أستوعب ذلك الذي حدث توًا... هل صحيحٌ ما حدث؟ هل حقًا ما حصل؟ هل فعلاً رمت تلك البنت القطة الصغيرة على الشرفة وتركتها تنام وحدها من دون أدنى تفكير عن التصرف الذي قامت به؟!

شعرتُ بالغصة تعصر قلبي لوضع تلك المسكينة، إنما ما باليد حيلة وجلوسي طوال الليل على شرفتي لا ينفع، فأغلقتُ الستائر الخارجية ودخلت.

لم أنم جيدًا تلك الليلة، كنتُ أنهض بين الحين والآخر للنظر من النافذة علَّني أطمئن على القطة، لكن من دون جدوى، فلم أستطع أن أرى أيِّ شيء فالظلام دامس والشرفة حافتها عالية. لا بد أن القطة نائمة.

بعد صراع طويل مع الأرق، استسلمتُ.

نهضتُ من سريري - ولم تكن الساعة قد بلغت الخامسة فجرًا - لصُنع قهوة الصباح التي لا يبدأ نهاري دونها، وبخلاف عادتي بُشرب القهوة على شرفة المطبخ؛ حملتُ ركوتي وذهبت إلى الشرفة المواجهة حيث تمكث القطة... صدقًا لم أعرف السبب، فعادةً ما تكون الشمس ساطعة والحر يمنعني من الجلوس على تلك الشرفة في الصباح، إلا ان الوقت ما زال باكرًا، وقبل شروق الشمس؛ أكون قد أنهيت قهوتي.

أُحبُّ فترة الصباح الباكر، حيث السكون يُخيِّم على الأجواء، لا يقطعه سوى زقزقة العصافير وصوتها الملائكي الذي يملأ النفس بالسكينة ويغمر الروح بهالة من الاطمئنان والسلام الداخلي ويعزز الشعور بعظمة الخالق وجمال الحياة والامتنان لوجودنا.

وما هي إلاّ دقائق معدودة حتى خرجت ذات الفتاة وبذات الطريقة المسرعة المستعجلة تحمل وعائين شفافين، أحدهما فيه ماء والثاني يحتوي على شيءٍ ما لا أدري ما هو، لونه أسود، يبدو أنه طعام. وضعتهما على الأرض، وأسرعتْ بالدخول. وقد لاحظتُ أن الفتاة لا ترتدي ملابس النوم بل ثياب عادية مخصصة للخروج من البيت.

ما هي إلاّ لحظات حتى بدأتْ الضوضاء أمام ذاك المنزل

فسُكانه يستعدون للمغادرة. وبدأت السيارات تختفي واحدة تلو الأخرى، والأبواب تُوصد بابًا تلو الآخر، ولم يبقَ سوى سيارة واحدة متوقفة وركابها يحتلون أماكنهم استعدادًا للذهاب... وهنا لم يعد باستطاعتي لجم نفسي، فوقفتُ وناديت على المرأة التي كانت أخر الموجودين وتهم بالصعود إلى السيارة التي كادت أن تمضي في طريقها لولا سماع السائق لصوتي والتوقف في اللحظة الأخيرة، وقلت بصوت خافت يرتجف من الانفعال:

- صباح الخير.

بادلتني المرأة التحية، قبل أن أباشرها بسؤالي:

- يبدو على انكم راحلون... ولكن ماذا بخصوص تلك القطة الصغيرة؟ هل ستتركونها وحدها وحيدة على الشرفة؟ حرام... فإنها سوف تحزن وتبكي وسوف تضربها الشمس بعد قليل والحر مؤذي لها، وقد تقع من الأعلى وتموت.

أجابتني بأنهم سوف يعودون بعد الظهر... فقلتُ لها:

- وإن يكُن، فقد تتأخرون بالعودة، ولا ينبغي ترك القطة وحدها على شرفة في الطابق الثاني، فماذا لو حدث لها أيّ مكروه؟ على الأقل أنزليها للطابق الأول، فهكذا أستطيع الاطمئنان عليها وأتمكن من الوصول إليها حال حدوث أي طارئ).

- انتظري قليلاً.

صعدتْ وأنزلت القطة ووضعتها على الشرفة في الطابق الأول وتبسمت لي ورحلوا.

لم أجد في بسمتها ما أراحني أو أسعدني، بل على العكس بسمتها لي زادتني غضبًا منهم وقلقًا على تلك القطة.

••••

أشرقت الشمس وبدأ الطقس يزداد حَرًّا مع تقدّم الوقت. حملتُ مقعدي وقرَّبته بحيث أتمكن من رؤية القطة طوال وقت جلوسي.

تمشت القطة قليلاً على طول الشرفة ووقفت، طويلاً أمام الباب تحاول فتحه، وتضربه بيديها الصغيرتين من دون جدوى. فتوجهتْ إلى ركنٍ عند زاوية الشرفة مارَّة قُرب الطعام والماء من دون أن تقترب منهما أو تشّمهما حتى، والتفتْ حول نفسها ونامت.

في هذه الأثناء بدأت قططي بالاستيقاظ واحدةً تلو الأُخرى وتتجمع جميعها على طاولة السفرة حيث نور الشمس يغطّي النصف الأقرب من باب الشرفة، وتبدأ بمناداتي لكي أضع لها طعام الفطور، ومن أجل وضع

الماء النظيف في الوعاء المخصَّص له، وتنظيف صندوق الفضلات الخاص بها... ومن هنا يبدأ نهاري فعليًا.

حملتُ قهوتي إلى المطبخ بعد أن ألقيتُ نظرة سريعة على القطة الصغيرة التي لم تزل نائمة ولم تبارح مكانها ولم تتحرك حتى.

بدأتُ بمهامي الصباحية، وكالعادة أضع الطعام لقططي الثلاثة في المطبخ على صينية خاصة، وطعام قطتي الأم في غرفتي حيث هي معتادة على تناول طعامها بمفردها بعيدًا عن أولادها لأنها وبرغم بلوغ صغارها الثلاث سنوات لازالت تترك لهم طعامها ليتناولوه إن هم اقتربوا منها أثناء تناولها لطعامها... لحد الآن لازلت لم أفهم بعد سبب فعلها هذا، مازلت لحد الآن أحاول تحليل تصرفاتها ومدى حبها وتعلُقها بأولادها، ودائمًا تفضيلهم على نفسها بهذا الشكل. ولا أجد جوابًا لتساؤلاتي ولا أجد الكلام المناسب لوصف هذا الوضع سوى بتسبيح الخالق وحمده استحسانًا.

قطتي أُمٌّ لثلاثة أبناء ذكور، تكبرهم بعام ونصف، وهي أمٌ حنون، وقطة شديدة النظافة، فطوال كل تلك السنوات لوجودها معي لم أرها مرة واحدة متسخة أو رائحتها كريهة، بل دائمًا نظيفة وأبدًا رائحتها زكية ولا أشبع من شمها وضمها وتقبيلها طوال الوقت، فقلبي معلقٌ بها وأحبها كثيرًا؛ كثيرًا جدًا؛ هي وأولادها الثلاثة، ولا أتخيل حياتي

من دون وجودهم فيها فقد ملأوا عالمي وحياتي بالفرح والسعادة، وحتى حُب الاستيقاظ في كل صباح على عيونهم البراقة الصغيرة المليئة حُبًا وتعلقًا بي وبوجودي معهم وثقة بحبي واهتمامي بهم، فلكل واحد فيهم صفاته وتصرفاته وطريقته الخاصة في التعبير عن نفسه وعن حبه لي، وطبعًا الاختلاف الوحيد القائم هو غيرة الكل من الكل فيما يتعلق الأمر بي وبحبي لهم، وفي الطليعة غيرة قطتي الأم من أي أحد يقترب مني من أبنائها وحتى لو كان أحد أبنائي، فغيرتها لا تُفرِّق بين أحدٍ أو شيء ما، والأهم هو أن لا أبتعد عنها ولو لبعض الوقت، فغيابي كفيل بجعلها تحزن وتتعب نفسيًا وفي الغالب تمرض، لهذا أتحاشى كثيرًا الخروج من البيت وتركها وحيدة هي وأبنائها، فغيابي ولو لبضعة ساعات كفيل بأن يكون سببًا لحُزنهم واكتئابهم.

قطتي بالرغم من هدوئها وعشقها للاستقرار وحُبها وتعلقها بروتينها اليومي؛ إلا أنها قطة عصبية في بعض الأوقات، ومزاجية متقلبة في الكثير من الأوقات، ومجنونة في كل الأوقات. كما أنها مستقلة لا تحب التقيد بالقوانين ولا تتبع التعليمات الموجهة إليها، وأكاد أقسم بأنها تفهم كل كلمة أقولها لها، وإنها تشعر بي وتحس بأي تغيير يطرأ من خلال تصرفاتي، حتى إيماءات جسدي وطريقة مشيتي وصوت دعسة قدمي قد حفظتْها عن ظهر قلب، وحتى حين أمرض أو أكون مُتعبة أو محبطة أو أمرُّ بفترة إرهاق،

أو إن كنتُ أشعرُ بالحزن أو بالغضب؛ فإنها تعلم وتجعلني بتصرفاتها على يقين بأنها تعلم ما بي ولا تنام سوى على وجهي ولا تجلس سوى في حضني وتغمر رقبتي بيديها وتشدني إليها دافنةً وجهها الصغير الجميل في عنقي... فكيف لا أحبها وكيف يعقل أن لا أتعلق بها وبوجودها.

••••

انتصف النهار، والقطة الأم وابنيها لم يظهروا بعد، وتلك الصغيرة لاتزال نائمة وقد غمرتها أشعة الشمس الحارقة واستولت على كامل الشرفة فلا يوجد مكان مظلل يمكن لها اللجوء إليه والاحتماء فيه من وهج الحر، وأنا بين تنظيف البيت والاهتمام بصغاري والركض وراءهم، وبين تحضير الطعام لعائلتي وتنظيم أمورهم، ومراقبة القطة الصغيرة وانتظار القطة الأم وأولادها؛ أكاد أفقد عقلي.

انتهيتُ من تحضير الغداء وجهزت المائدة وجلسنا نتناول الطعام في تمام الواحدة والنصف بعد الظهر ككل يوم في الموعد المحدد قبل ذهاب ابنتي لعملها، وإذا بي أسمع صوت مواء مميز. سألتني ابنتي إن كنتُ قد سمعت الصوت، فأجبتُها بأنني سمعته وأنه القط (روميو) يبحث عن القطة (جولييت) وابنيها (جونيور وبيلا)، وهذه هي

الأسماء التي أطلقتها على القطة الأم وولديها.

روميو قط كبير، وأعتقد بأنه والد الصغيرين، لآنه ظلّ يلاحق جولييت طوال فترة التزاوج، وكان يواكب تحركاتها دائمًا ويجوب الحيّ بحثًا عنها، ويدور بين البساتين المجاورة وهو يبكي وينادي، إلى أن يجدها فيجلس قبالتها هي وأولادها يراقبهم وكأنه يحرسهم بينما يأكلون من دون محاولة الاقتراب من الطعام، فقط يكتفي بالجلوس والمراقبة لحين انتهائهم من تناول الطعام، فيقترب من مكان الطعام ويلعق الأرض بحثًا عن أية بقايا.

كان هذ المنظر يُحزنني، ويحيِّرني تصرف القط وكأنه أبٌ حقًا وكأن القطة الأم وأبناءها هم عائلته التي يخاف عليها ويحميها، فأُسرع بدوري لإطعامه فور حضوره.

وها هو يدور في الحي من جديد كعادته يبحث عنها عندما تغيب، وهي اليوم غائبة طوال النهار على غير عادتها، مما أقلقني، ففي الغالب هي لا تفوّت موعدين متتاليين للطعام، واليوم انتظرتها في الصباح ولم تظهر لا هي ولا صغارها، والآن شارفت الساعة الثانية بعد الظهر وما من أثرٍ لهم.

انتهينا من تناول الطعام، وخرجتُ للاطمئنان على القطة الصغيرة، فوجدتُ جولييت وابنيها ينتظرونني وعيونهم مسمرّة نحوى شرفتي، وروميو جالسًا أيضًا، فأسرعت إلى

المطبخ لجلب الطعام، وبما أن ابنتي لازالت في البيت؛ وضعتُ الطعام في طبق وأرسلته معها لوضعه بجانب الحائط قُرب مدخل موقف السيارات من الجهة المقابلة، الخاص بالجيران.

وبينما جولييت وابنيها على وشك البدء بتناول الطعام الذي أرسلته لهم، وهو عبارة عن طبخة خاصة أحضِّرها لقططي منذ أن بدأوا بتناول الطعام العادي وحدهم؛ وهو مكوّن من (قوانص الدجاج) مع الخضار (البطاطا والجزر والكوسا)، وأضيف على الوصفة ملعقة صغيرة من زيت الزيتون والقليل من الشوفان، وهذه الطبخة من الأكلات المفيدة والمغذية جدًا للقطط لاحتوائها على جميع العناصر الغذائية والألياف والمعادن الضرورية لتقوية جهاز المناعة لدى القطط، كما أنها سهلة الهضم وتعزز النمو السليم للعظام والصحة الجيدة ككل، طبعًا من دون إضافة أيّ من الملح أو التوابل أو الثوم والبصل لآنها تُضِّر بصحة القطط.

وبينما ابنتي تهمّ بالابتعاد عائدةً بعدما وضعت الطعام على جانب سور ذاك المنزل بعيدًا عن الطريق خوفًا من قدوم أية سيارة مسرعة، وإذا بسيارة الجيران تتوقف؛ على غير عادتهم بالقدوم بمثل هذا الوقت المبكر من النهار؛ وباشروا بإنزال أمتعتهم، وما هي إلا بضع دقائق على دخول المرأة إلى البيت حتى أصبحت القطة الصغيرة خارجًا

وراحت تقترب من صحن الطعام، غير أن روميو استعد لمهاجمة القطة الصغيرة، ووقفت جولييت وعلى وجهها تلك النظرة الغاضبة القلقة، وحتى جونيور وبيلا راحا يصدران ذاك الصوت العميق المخيف، صوت الهسهسة في وجه تلك المسكينة التي ولّت هاربة من العيون الغاضبة التي ترمقها شذرًا.

أطلّت المرأة وحدثتني بصوتٍ جاهدتْ لجعله صادقًا ومقنعًا قدر المستطاع، قائلةً لي بعد أن ألقت عليّ التحية:

– القطة الصغيرة جائعة وسوف أضع لها بعض الطعام.

قلتُ لها:

– من الطبيعي جدًا أن تكون جائعة تلك المسكينة فهي لازالت صغيرة ويجب عدم تركها تجوع من دون طعام أو ماء نظيف، ولا بد من إطعامها كل ساعتين أو ثلاثٍ كحدٍّ أقصى، وطبعًا لا يجوز تركها وحدها كل هذا الوقت، حرام.

سارعتْ المرأة بالدفاع عن نفسها قائلةً بأن القطة ليست لها وبأنها قدمت وحدها إليهم من الشارع، وبأنهم أشفقوا عليها وأطعموها.

وهنا كان الغضب عندي قد وصل لذروته من تلك المرأة ومن أخبارها الملفقة فطبعًا لم أُصدِّق ولا حتى كلمة واحدة من كلامها، وهذا بكل بساطة لأنني أعرف كل القطط الموجودة في الحيّ، ولأكثر من ثلاث سنوات وأنا أطعمها

وأهتم بها، ومن المؤكد بأن هذه القطة ليست من الجوار وهي غريبة تمامًا عن الحيّ وقطعه.

رغم هذا، وحُبًّا لتلك المسكينة وخوفًا على صحتها؛ قلتُ للمرأة:

- انتظري قليلاً، سوف أرسل لكِ بعض الطعام الذي حضَّرته لقطعي من أجل إطعام القطة الصغيرة فإنه طعام أعددتُه بنفسي، وهو مفيد جدًا وسوف يُشبعها ويُغذِّيها. وسوف أرسل لكِ الكمية الكافية لعدة وجبات متفرقة على مدار اليوم لكي تُطعمي الهرة، فهي لازالت صغيرة وبالتالي تتناول طعامها على دفعات في فتراتٍ متفاوتة، فهي تشبع سريعًا وتجوع سريعًا أيضًا، لهذا يجب التنبه لهذا الموضوع.

أسرعتُ إلى المطبخ ووضعت الطعام في وعاءٍ وأرسلته لها من أجل إطعام تلك الصغيرة.

أحسستُ ببعض الراحة لأن القطة لم تعد وحيدة، وأنها سوف تأكل من طعامي الذي أعددته لصغاري، فهو طعام صحي يفيدها ويجعلني مطمئنة البال لبعض الوقت على الأقل.

وبالفعل، ما إن أعطت ابنتي الطعام للمرأة حتى أدخلت القطة ووضعتها على الشرفة في الطابق الأول وقدمت لها الطعام، فبدأت تلك المسكينة بالتهام الطعام بطريقة

جنونية أوجعتْ قلبي لشدة شعورها بالجوع. وإقدامها على الطعام بهذه الطريق خاطئ جدًا، لإنها سوف تشعر بالألم في معدتها بعد قليل، وقد ترجّع كل الطعام الذي تناولته.

ظللتُ أراقبها لبعض الوقت للتأكد من أن كل شيء على ما يرام. وبعد ذهاب ابنتي لعملها دخلت من أجل إكمال عملي ولتنظيف المطبخ.

••••

منذ وجود تلك القطة في حيّي؛ أصبح الخروج إلى الشُّرفة هاجسًا لديّ، ورؤيتها تركض وتلعب يُفرحني، ومراقبتها وهي تغطُّ بالنوم العميق وشعوري بأنها آمنة مرتاحة؛ يُريحني. وبين كل عملٍ أقوم به هناك دائمًا وقفة استراحة لشرب سيكارة على الشرفة.

مراقبة تلك الصغيرة وهي تلعب وكأن لا همَّ لها؛ يُحزنني ويزيدني قلقًا، وأسئلة كثيرة تُحيِّرني، ولا أتصور أنني سأحصل على أي جوابٍ لأيٍّ منها:

من أين اتت تلك القطة؟ وأين أُمها؟ ماذا حلَّ بها؟ هل ماتت؟ هل رحلتْ؟ هل أخذ أحدهم تلك الصغيرة من أمها عنوةً؟ إذ أنه من المستحيل أن تتركها أمها وهي بمثل هذا السن الصغير، فهي لازالت تتغذى من ثدي أمها، وهي

بحاجة لحليبها وحُبها وحنانها وتواجدها معها طوال الوقت. فقُرب أمها منها ورعايتها لها ضروري جدًا من أجل سلامتها وصحتها وأمنها وسلامها فأُمها تحميها وتحِنُّ عليها... المسكينة كم هو الوقت الذي قضته من دون أمها؟!

سؤالٌ تلو الآخر، ولا أجوبة غير أن إحساسًا غريبًا سيطر علي، وفكرة واحدة تملكت خاطري رغم صعوبة الأمر، أو لكي أكون أكثر دقة «استحالة الأمر» بأن هذه الصغيرة سوف تكون في بيتي وبين أحضان قلبي عما قريب، فالقلب الكبير الموجود على جنبها ناحية اليمين؛ كأنه عمل فنانٍ محترف، جذبني بشدة.

استغربتُ من شعوري هذا، فأنا أعرف تمام المعرفة بأن وضعي لا يحتمل أي مصاريف إضافية، فغلاء المعيشة والارتفاع المستمر للأسعار وعدم استقرار سعر موحّد للسلع؛ كل هذا يجعل الحياة أكثر صعوبة يومًا بعد يوم، خاصةً في ظل الانقطاع الدائم للكهرباء وندرة المياه، مما يضطرني لشراء الصهاريج من أجل ملأ الخزان وتأمين البيت بالماء. فالمصاريف كثيرة، والمدخول بالكاد يكفي، حتى أنني أُجبِرتُ على إلغاء اشتراك المولِّد الكهربائي بسبب الارتفاع الباهظ في التكلفة والذي يزداد مع كل فاتورة في أول كل شهر، واستعضتُ عنه بإضاءة الشموع، وبأنوار المنازل المجاورة التي تتسرب من الأبواب والنوافذ إلى منزلي. وبالتالي فإن تكاليف الاعتناء بقططي باهظة

الثمن، وتأمين أكلهم والرمل الخاص بهم وأدويتهم والرعاية الصحية إن احتاج أحدٌ منهم لزيارة عيادة الطبيب البيطري؛ مُكلِّفة جدًا، كما أنني أُخصِّص مبلغًا مُعينًا للاهتمام بقطط الشارع وإطعامها، وحتى تطبيبها إن لزم الأمر. وبيتي لا يتسع لأية قطط جديدة، فقِططي كبيرة جدًا، ليس بالعمر فقط، وإنما بالحجم أيضًا، وهذا وحده كفيل بإبعاد الفكرة سريعًا من رأسي. كما أن قطتي الأم مُدلَلة وتغار كثيرًا على ممتلكاتها، فأنا وغرفتي وسريري وبيتي من ممتلكاتها الخاصة، وهي دائمًا حريصة على عدم السماح لأي أحد بالاقتراب مني أو النوم قُربي أو الجلوس بحضني، وتهاجم أولادها الثلاثة إن ناموا في سريري وتضربهم، فهي مزاجية، وأحيانًا تكون مجنونة، ودائمًا وأبدًا غاضبة لا يعجبها أي شيء.

وبالتالي فإن مجرد التفكير في إحضار قطة للبيت شبه مستحيل، وبالأخص أنني في كل يوم تقريبًا تُصادفني حالة محزنة فيما يتعلق بقطط وكلاب الشارع، وهنالك دائمًا قطط شاردة وكلاب أهملها أصحابها وتخلى عنها مالكوها ليصبح الشارع ومخاطره ملاذها، ومصيرها النفي والنكران لوجودها وحاجاتها وأمانها وصحتها... فوالله حرام.

إن المفهوم الخاطئ لبعض الناس عن تربية الحيوانات الأليفة لهو مدمر بالفعل، والجهل السائد عند بعض البشر لهو مؤذي، إذ أن تربية الكلاب والقطط أصبحت مجرد

موضة في هذه الأيام، من دون أدنى تفكير بأية مسؤولية تجاه تلك الأرواح البريئة التي تكون هانئة سعيدة مطمئنة البال في بيت يحتضنها وفجأة تجد نفسها مُهملة متروكة في الطريق، لتواجه مصيرها وحدها من دون تجربة أو معرفة، لتموت من الجوع والبرد، أو تتعرض لمهاجمات من الحيوانات البرية فلا يمكنها الدفاع عن نفسها، أو تتعرض للدهس، فهي ليست معتادة على العيش في الشارع، وأيضًا تواجه جميع أنواع المضايقات من بعض الأولاد، وبعض هذه المضايقات يكون قاتلاً للأسف.

هذا الواقع المُحزن موجود وبكثرة، من دون أدنى تفكير أو مجرد إحساس بالإنسانية تجاه هذه المخلوقات الضعيفة.

جارتي تُرَبي قِطة... أريد أن أربي قطة. جاري اشترى كلبًا... سوف اشتري كلبًا أجمل، ومن فصيلة أغلى... مع العلم بأن ولا واحد من بينهم يعلم شيئًا عن تربية القطط والكلاب، ولا يسبب لهم هذا أي قلق، فهم فقط لا يُبالون، ولن يُشكِّل رمي القطة أو الكلب في الشارع أيَّ فارقٍ عندهم، فإذا مّرِضَ الحيوان الأليف أو تقدُّم بالعمر؛ يرمونه ويُحضرون غيره أصغر وأصح، ولا يهم إن عانى المسكين أو تعذَّب، أو إن حزن واكتأب، ولو مات حتى، المهم أنه كان مجرد ثقل أُنزِل عن كاهلهم... حسنًا... وأين الإنسان هنا؟!

وهنالك نوعٌ من الناس يُسمّون أنفسهم من مُحبّي ومُربّي

القِطط، لكن نجد قطتهم تعيش في الشارع وحيدة متروكة تنام وحدها في البرد والصقيع والعواصف في فصل الشتاء، أو في قيظ الحر والشمس الحارقة في الصيف، يضعون الأطواق في أعناق تلك المشحرة المستضعفة...

لا، عزيزي... إن مررتَ يومًا قُرب قطة ولم تهاجمها أو تضربها لا تكون من مُحبي القطط،

ويا عزيزتي، إن صادف مرة وأطعمتِ قطةً تكاد تموت من الجوع؛ شيئًا ما – وعلى الأرجح لا يناسبها ويكون مُضرًّا لصحتها – من دون مجرد التفكير بمصيرها؛ لا تُصنّفين من مُربي القطط!

فرأفةً بتلك المخلوقات، وحُبًا بالله تثقفوا ومارسوا إنسانيتكم بإحساس ووعي، فإن الله لا يرضى بأن تُعامَل مخلوقاته بهذه الطريقة التعسفية القاسية المؤذية، فهذه التصرفات بعيدة كل البُعد عن الإنسانية.

وهنالك مجموعة من الناس يعتقدون بأن الكلاب والقطط موجودة فقط لتسلية أبنائهم إن شعروا بالضجر، فيشترونها لهم من أجل تمضية بعض الوقت، وعندما يسأمون منها بعد أن يكونوا قد عاملوها بأبشع أنواع المعاملة؛ يرمونها بمكانٍ بعيد عن منازلهم كي لا تتمكن من العودة لاحقًا، أو يتركونها في منتصفِ ليلةٍ مُعتمة، أمام باب عيادة بيطرية مقفلَة.

إن التلاعُب بأرواح تلك المخلوقات المسكينة ليس امتيازًا يحصل عليه أبناء الأغنياء، وأولئك المدللون من قبل ذويهم فاحشي الثراء... إن هذا عارٌ على الإنسانية والله.

إن إحساس الظُلم صعب جدًا، وخاصةً إذا كان المرء يشعر بأنه مُقيَّد، وليس بيده أية حيلة، فقط يرى الظُلمَ ويعرف الظالم، إنما إنما لا حول ولا قوّة لديه لردع بعض الناس عن ممارساتهم الخاطئة ومعاملتهم السيئة لتلك الكائنات الصامتة.

فدائمًا هنالك بعض الناس الذين لا يبالون، وكيف لا يبالون؟! كيف أمكنهم أن يكونوا بهذا الإهمال المُدمِّر، كيف أمكنهم أن يكونوا بهذا الإهمال القاتل؟

أفكاري سوداء جدًا في الوقت الحالي، ومشاعر الحنق والغضب تسيطر عليّ سيطرة تامة، فبينما أكون أراقب (جولييت) وهي مستلقية تُرضِع ولديها بكل هدوء مطمئنة البال، ويقوم أحدٌ ما بمهاجمتها فجأة وهو يصرخ ويصيح ويفتعل الضوضاء لإخافتها، وتجفل المسكينة وتقفز وتفِرُّ هاربة، وصغيراها يُصعقان ويتسمَّران في مكانهما من هول الصدمة، ويروح ذاك الأرعن الأجوف يضحك باستهتار مقيت... أو حينما أكون أعدُّ بعض الطعام بانتظار قدوم تلك الأم وابنيها لرميه لها، هناك من يرميها بالحجارة بكل إصرارٍ بقصد إصابتها وإلحاق الأذى بها وبصغيريها... أنا

أرمي لها الطعام وآخرون يرمونها بالحجارة... فأين العدل في ذلك؟!

صِدقًا أصبحتُ أكره بعض البشر وأكره تصرفاتهم التي لا تنمُّ سوى عن سوء أخلاقهم وقساوة قلوبهم وتحجُّر نفوسهم، ولا أجد الكلمات المناسبة لأصفهم من دون ذِكر العمى الذي يُغلِّف أرواحهم قبل عيونهم، فوالله لو قُدِّر لي محاكمتهم لأنزلتُ بهم أشدّ وأقسى عِقاب، إنما ليس باليد حيلة، والجهل والعمى عن قيمة الحياة ومعناها قد أصابهم فكيف السبيل لإفهام هكذا نوع من البشر بعزّة الله وبركاته لأصغر وأضعف مخلوقاته؟ وما الحل مع أُناسٍ فاقدي الحسّ والإحساس؟!

فقيرُ الشيء فاقِده، ومن يغلِّف الجحود قلبه لا يستطيع إعطاء الحب لأحد، ومن يستحوذ السَّواد على روحه، لا يمكنه وهب المحبة، ومن يعمّ الفراغ وجدانه وضميره،لا يبادِر سوى بالأنانية ولا يتشارك سوى الإهمال واللامبالاة.

إنَّ أعمى البصر عادِمه، فما للنظر من وجود في عيون مُبصرة ولا بصيرة، ومن غبَّ الفراغ من عالمه الضوء وسلبَ من داخل مهجته النور؛ يعيش في الظلمة، ولا يرى الأنوار المتوهجة في أرواح تلك المخلوقات العفوية.

••••

أقبل المساء حاملاً معه بعض الهدوء في حيّي الذي أصبح مؤخرًا صاخبًا جدًا يملأه الضجيج والصراخ وضوضاء أولاد الجيران الكُثر الذين لا يتوارون عن إحداث الجلبة وإزعاجي، ولا يُردَعون من قِبل أهاليهم ولا المُرَّبين المستخدمين من قِبلهم، فأجلس أتحمل صياحهم وضجيجهم مُجبرةً، على أمل انتهاء العطلة الصيفية سريعًا ليعودوا إلى مدارسهم، وبالتالي انتقالهم وذويهم لقضاء فصل الشتاء في الساحل حيث تصبح زياراتهم محدودة وتنحصر فقط في نهايات الأسبوع والعُطل المدرسية.

وها هي القطة من جديد مطرودة خارجًا على الشرفة، والأبواب موصدة دونها، والحَرُّ أنهك قواها فاستلقت أرضًا منهكة من الحر والوحدة والشمس الحارقة، فلم يعُد باستطاعتها تحمُل المزيد، فراحت تموء بصوتٍ متقطِّع أضعفه التعب، وتضرب الباب بيدين أثقلهما الحزن، ولا من يجيب أو يبالي بتلك الصغيرة.

وقفتُ أُراقب ما يجري وقد تملَّكني الغضب، ألا يملك هؤلاء القوم أية أحاسيس؟ أليس لديهم أدنى مسؤولية تجاه هذه المسكينة التي يرمونها خارجًا بكل قسوة؟ ألا يحوون أقلّ مستوى من التفكير؟!

وقفتُ أضع يدًا على خاصرتي، بينما اليدُ الأخرى ألوِّح بها في الهواء علَّ أحدًا ما يلحظني، إلا أن الوقت طال ولم يرني

أحد. ناديتُ في بادئ الأمر بصوتٍ خافتٍ، فلم يسمعني أحد، وما من مُجيب، فصِحتُ عاليًا أنادي على أي أحد يمكنه سماع صوتي الذي أصبح وكأنه يأتي من البعيد البعيد حاملاً معه صدىً لما يختلج في داخلي من أحاسيس ومشاعر أتعبها الترقُّب. وإذ بإحدى العاملات التي تهتم بأولئك الأولاد تنظر إلي نظرة تساؤل، فبادرتها القول بأن القطة محتجَزة خارج الشرفة، غير أنها لم تفهمني، فأعدتُ صياغة كلماتي باللغة الإنجليزية وأنا أصرُّ على أسناني بحيث آلمني وجهي وأحسستُ بأن فمي مطبق بقوة تمنعني من الكلام، إذ أن المستخدمة أجنبية... أجابتني بأنها سوف تُدخِل القطة. وبالفعل نادت على أحدهم لفتح الباب إفساحًا بالمجال لدخول القطة.

دخلتُ إلى البيت أشتُمُ وألعنُ استبداد الناس واستعبادهم لتلك المخلوقات المسكينة.

مضى النهار وقد قضيتُه بالعمل في البيت بين تنظيف وغسيل وتحضير الطعام والتوضيب والترتيب والاهتمام بقططي وبأولادي، وشارف على نهايته عند اقتراب منتصف الليل إذ تنبَّهتُ لتأخُري على (جولييت) وابنيها، فأعددتُ لهم الطعام سريعًا وخرجتُ إلى الشرفة. غالبًا ما تكون (جولييت) نائمة في مكانٍ منعزل وعندما تسمع صوت باب شرفتي يُفتح تحضر سريعًا هي وأولادها، أما الليلة فإنهم يقفون وعيونهم نحو الأعلى، لعلّهم ملّوا انتظاري فقد

تأخرتُ عليهم، ولكنهم ما زالوا ينتظرونني بكل ثقة مُدركين بأنني سأحضر.

وبما أن الوقت متأخر وقد خلد الجميع للنوم وأنا الوحيدة التي لازلتُ ساهِرة؛ فكان لا بد لي من رمي الطعام، وصِدقًا هذا لا أحبه كثيرًا، فإنني أفضل النزول ووضع الطعام بنفسي ومداعبة تلك القِطط، إلا أنه الحل الأنسب والأسرع في مثل هذا الوقت، كما وأنهم ليسوا مُعتادين على اقتراب أي أحد منهم.

(جولييت) تعرفني جيدًا منذ كانت صغيرة ومعتادة على نزولي إليها ووضع الطعام لها ولاثنين غيرها من قطط الحي، إلا أن سوء معاملة بعض الناس لها والإساءة لأولادها جعلاها تخاف من الجميع على السواء. لا بأس طالما أني أطعمها وأتأكد بأنها وأولادها بصحة جيدة ولا يجوعون أو يُعانون من الإهمال؛ فهذا يُريحني نسبيًا.

رميتُ الطعام وصِرتُ أحدث تلك الأم الصغيرة وأبنائها بصوتٍ خافت، أدّللهم وأقول لهم الكلام الجميل الذي وإن لم يفهموه سوف يشعرون به في أعماقهم، يُريحهم ويهدِّئ من روعهم ويطمئنهم، فإنهم يحسون من نبرة صوتي ومن نظرة عيوني الحانية نحوهم، بأنني أحبهم ولن أؤذيهم مطلقًا، وهذا الرابط وإن كان قويًّا جدًا بيني وبين قططي في البيت، فهو جليّ وينعكس أيضًا على قِطط الشارع.

أنا لم أُخططِّ لكي أحبهم وما بذلتُ أيّ مجهود لكي أقلق وأخاف عليهم وما تبجّحت بإطعامي لهم ولا جاهرت باهتمامي بهم... إنني فقط وبكل صدق ومن كل قلبي: أحبهم.

أنهوا تناول طعامهم وتواروا عن الأنظار، فسارعتُ بإغلاق الستائر والدخول فقد كان نهاري طويلاً ومتعِبًا، ومليئًا بالتوتر والقلق، ومن الأفضل الخلود إلى النوم علَّني أتمكَّن من إراحة أعصابي قليلاً ففي الغد عندي الكثير من الأعمال المتراكمة المؤجَلة.

وكعادتي في كل ليلة أدور في الغُرف بحثًا عن قططي الأربع لكي أطمئن عليهم والتأكد من إقفال جميع الأبواب والنوافذ قبل دخولي إلى غرفتي.

استلقيتُ في سريري وقد أخذ التعب مني كل مأخذ، وقفزتُ فجأة مذعورة: (أين القطة الصغيرة)؟ وأيقنتُ بأنني أهملت الاطمئنان عليها لكثرة انهماكي بأعمالي المنزلية ولكثرة انشغالي بقططي، نسيُت أمرها لبعض الوقت. نهضتُ مسرِعة أقصد النافذة في غرفتي ولم أرَ أي شيء، فحملتُ هاتفي وأسرعتُ خارجة من الغرفة بحيث لم أتنبه لألعاب قططي المبعثرة في كل مكان ولركلي سهوًا بعضًا منها وتعثُري. الضوضاء أزعجتْ قطتي الأم التي كانت غارقة في النوم العميق، فراحت تتململ في مكانها

معترضةً على تركي السرير. وبسرعة إنما بحذرٍ أكثر هذه المرة خرجتُ إلى الشرفة وأزحتُ الستائر، ولم أتمكن من رؤية أي شيء فالشارع كله يلِفُّه الهدوء وسكون الليل والعتمة، وما من أي أثر لتلك الهرة الصغيرة.

أشعلتُ سيكارة وجلستُ أنتظر علَّها تظهر وأراها فيطمئن بالي برؤيتها ويرتاح ضميري قليلاً، فقد آلمني أني أهملتُها ونسيتُ وجودها، وإن كان فقط لبعض الوقت.

صِرتُ أؤنِّب نفسي وقد أحزنني ما حصل، وشعرت بأنني أضعت شيئًا ذا قيمة، وأحسستُ وكأنني فقدتُ أحدًا له مكانته الخاصة في قلبي.

طال جلوسي وما من أي أثر لتلك الصغيرة، وبدأتْ قطتي بالمواء تريد الخروج من الغرفة، فسارعتُ بفتح الباب لها، فخرجتْ ودخلتُ أنا.

استيقظتُ مذعورة وهببتُ من السرير كمن لدغته أفعى وأسرعت أفتح النافذة وأزيح الستائر غير مُدرِكة للشيء الذي سأراه، فالظلام لازال حالكًا والأضواء المطفأة وهدوء الشارع الساكن؛ تعلن خلود ساكنيه للنوم، ووحده نباح كلب بعيد يكسر الصمت، وكأن الكون كله يتحضر لانبلاج الفجر في ساعة الغسق عند انبعاث ضوء الدجى من خلال أولى إطلالات خيالات الشمس بأجنحتها الذهبية وتلوين الأفق باللون اللازوردي الزاهي.

تسمَّرتُ في مكاني ساهمة، أخاف أن أتنفس، أخاف أن أرفّ بجفوني، أتهيّب زوال اللحظة، أتمسك بهذا الإحساس بمهابة راهب يستحضر ربه بسجدةِ ناسك في معبد بلحمة الأرض بالسماء كطيرٍ طاول حدود الفضاء كزرقة يمٍّ كزورق، فالليل لي والأرض لي والحيُّ حيي والشارع عتمه وكتمه لي.

تاقت نفسي تعانق النسيم وتحتضن روائح الورى وكأن النسيم أريجه لي، وليَ الورى، سبحان خالق الأكوان سبحان الله سبحانك ربي، فكم لك في العدل من حُكمٍ بين البشر، وكم لك في البشر من حَكمِ، وما أصلتَ أمرٍ على عبدٍ، وكم من عبدٍ على سيده تمرد، وكم من ظالمٍ ضاق ظُلمه وطعم الحنظل من أحكامه تذوق، رحماك سيدي، قَومُ العباد في العمر ولا أصعب، فالمفهوم أصبح من المجهول أقرب وحانت من الإلتفاتات العيون، وما زالت للعمى أقرب، رب السموات والأرض وما بينهما ومن على عروشها تربع، زالت العروش، والألقاب لم تعد تنفع.

إحساس جميل والله، إن بجمال الخالق نتشبه ليس الجمال بالوجوه والأشكال، بل جمال الروح والقلب هو الأجمل وما خلق الله أرواحًا لتُستباح، وما خلق الله تلك المساكين لتتعذب.

ربي خلقت الجمال في أعيننا وزرعت الرحمة في قلوبنا

فكيف لبعض البشر أن يجحدوا روحًا وينكرون ذاتًا أنت مالكها، رحماك ربي رحماك.

ظللت أراقب الفناء المعتم لذاك المنزل، إلى أن بدأتْ ملامح الفجر تظهر وخيوط الشمس الأولى تلمع. وبعد أن قضيت معظم ساعات الليل على الشرفة، جالسة أراقب، أم أمشي أفكر والقلق يسيّر كل أفكاري من دون جدوى.

بدأ التعب يسيطر على كل حركاتي، والنعس يغالب جفوني، فلا فائدة من مكوثي أكثر.

استغرقتُ في النوم صباحًا أطول من المعتاد، حتى اِستفقتُ على صوت خربشة قطتي على الباب تريد الدخول، فنهضتُ مرغمة رغم تعبي وحاجتي المُلِّحة للمزيد من الراحة، إلا أنني تأخرتُ على إطعام صغاري، كما أنه لا بد من تنظيف حمامهم الخاص فهم لا يستخدمونه إن كان متسخًا، ويقاومون رغبتهم بالدخول، وهذا ليس صحيًا أبدًا لهم.

جلستُ أحتسي قهوة الصباح على شُرفة المطبخ لأن حرارة الطقس منعتني من الجلوس في الشُّرفة الأُخرى حيث الهرة الصغيرة، إلاّ أني وما إن خرجتُ من غرفتي حتى توجهتُ إليها علَّني أرى تلك الصغيرة تلعب أو تأكل أو تنام في زاويةٍ ما من زوايا تلك الشرفة التي صِرتُ أبغضها. اختفت كل السيارات التي عادةً ما تكون متوقفة أمام ذاك

المنزل والأبواب مقفلة والنوافذ مغلقة ولا أثر لأي أحد من قاطنيه، ولا للقطة حتى.

••••

كعادتي في كل يوم، وما إن إنهي قهوتي حتى أبدأ بأعمالي الصباحية المعتادة، طوال النهار أدور في البيت من عمل إلى آخر بين تنظيف وترتيب وطبخ، وتنتهي فترة قبل الظهر، واليوم كان الحَرُّ فظيعًا، والشمس قوية وحارقة، لكن هذا لم يمنع (جولييت) من انتظاري هي وأولادها، وما أن انتهت ابنتي من تناول طعامها حتى أرسلتُها لوضع الطعام لتلك القطة الجميلة وصغارها. كان غداؤهم اليوم عبارة عن البطاطا المسلوقة المهروسة مع التونا، وقد وضعتُ طبقًا إضافيًا لتلك الصغيرة وطلبتُ من ابنتي وضعه بعيدًا عن طبق بقية القطط خوفًا من المشاحنات فيما بينها. غير أن (جونيور) ما إن لمح الطبق حتى ترك صحنه وأسرع مهرولاً نحوه... يا إلهي كم هو محتال هذا الصغير، ودائمًا جائع ولا يشبع، حتى أنه يُجهز على طعام أخته وأمه في ثوانٍ، الأمر الذي يجعلني أحيانًا أنتظر انتهاءه لأُعاوِد وضع الطعام لـ (جولييت وبيلا).

إنه قِطٌّ صغير، عُمره حوالي الأربعة أشهر، وهو كثير

الحركة لا يهدأ، يُحب اللعب مع أمه وأخته، كما يُحب الركض وتسلُق الأشجار وملاحقة الفراشات ومطاردة كل شيء يتحرك. إن مراقبته وهو نائم بحضن أمه يرضع تُفرحني، ورؤيته وهو نائم بظلِّ حائطٍ ما أو تحت غصن شجرة فاردًا جسده الصغير بطريقة طريفة؛ يجعل البسمة تعلو فمي، بسمة سرور ممزوجة بالحنان الذي يُنعش قلبي بمشاعر العطف والرفق بهذه المخلوقات الرائعة، بسمة رضا أحِسُّها حين يكون اكتفى من الطعام وشبع، بسمة حُبٍّ تُدغدغ أحاسيسي بأرقِّ المشاعر لرؤيته يتدلل على أمه وينام في حضنها، وهي بدورها تغمره بيديها الصغيرتين وتُقرِّبه منها وكأنها تخاف ابتعاده هو وأخته عنها، بسمة فخر تعلو ثغري كبسمة أية أم حين يُناديني لإطعامه، وحين ينتظر عودتي إن غادرتُ البيت وهو على ثقة تامة بعودتي وباهتمامي به وبأمه وأخته، بسمة حمدٍ وشكر ودعاء لله لكي يحميهم من أخطار الشارع ومن أحقاد بعض البشر، ويُبعد عنهم المرض والألم والمعاناة، وأن يُمكِّنني دائمًا من إطعامهم والاهتمام بهم، أُصلِّي وأطلب من ربي منحي القدرة والمقدرة لكي لا أضطر في يومٍ من الأيام للابتعاد عنهم أو إهمالهم، ولكي أتمكَّن دائمًا من الاعتناء بهم وبجميع قطط الشارع.

إن صادف يومٌ وغادرتُ البيت وتأخرتُ بالعودة فإن القلق والتوتر يرهقانني، والخوف من حدوث أي مكروه لهم

ينغِّص عليّ نهاري، ولا أُصدِّق متى أعود وأُسرِع بتحضير الطعام لهم ومناداتهم وقدومهم إن كانوا مختبئين في مكانٍ ما، فيُسرِعون لدى سماع صوتي لكي يأكلوا.

عقلي لا يتوقف عن التفكير بهم وبجميع القطط المتروكة لتواجِه وحدها قساوة الطبيعة وقساوة قلوب بعض البشر المتحجرة الحاقدة الظالمة، إنه وإن كان من الطبيعي تواجدهم في الشوارع والأزِّقة وقُرب الملاحم والمطاعم والبيوت؛ طمعًا ببعض الطعام وطلبًا للقليل من العطف والحنان من بني البشر وللقليل من الاهتمام والمودة؛ إلاّ أنه ليس من الطبيعي مُعاملة بعض الناس لهم بكل تلك القسوة التي لا مُبرِّر لها، فليس من المفروض أن تُضرب هذه المخلوقات وتُعنَّف وكأن كل إنسان عنده عُقَد في الحياة ويُحمِّلها للقطط والكلاب، والأرانب والدجاج والصيصان، وحتى العصافير، وحتى أُسُود الغابة والدببة والغزلان في البراري، وأينما وجِدوا؛ لم يسلموا من يدِّ الإنسان المدمرة، الحاقدة، وكأنه يستخلص ظُلم الحياة وقساوتها بنظره من سلام وأمان وصحة تلك المساكين.

أيجوز تعنيف قطة ومعاملتها معاملة سيئة ليس لسبب معين بل فقط لأنها ضعيفة ولا تستطيع المدافعة عن نفسها؟ ويكون الظُلم بالألفاظ وبالممارسات الخاطئة التي يُعامَل بها أولئك المحرومين المتروكين، وبالأحكام القذرة بحقها من بعض من يُطلَق عليهم لقب إنسان؟!

أين الإنسان مما تُعانيه تلك المخلوقات الضعيفة؟ أين الإنسان مما تقاسيه تلك المخلوقات المسكينة من عُنفٍ وظلم وقساوة وتحجر قلوب وعقول من قبل من يسمون أنفسهم من بني البشر.

أين الإنسان من الأحقاد والإجرام بحق تلك المخلوقات المهملة؟

أين الإنسان من التعذيب والأذى الذي يلحق بتلك المخلوقات البريئة من سحْلٍ ودهسٍ وربطٍ بمؤخرات السيارات وجَرٍّ؛ ليس لسبب مفهوم سوى حُبِّ الأذى والإجرام؟

أين الإنسان، أين الإنسانية من أولئك الذين يُقال عنهم أنهم بشر يُفترض بأنهم يمتلكون العقل والقلب والنظر؟ أين هم مما تقترفه أياديهم من إثمٍ وإجرامٍ وجشعٍ بجميع أشكاله وأحواله؟ إنهم أولى بالتعذيب والازدراء، وبالتعنيف والانتقام، وبالأذى والوجع. إنهم أولى بالمُعاناة.

أين الإنسان ممن يسرقون الهررة الصغيرة الرضيعة من أحضان أمها ويتركونها مجروحة تتألم لفراق أولادها؟! يدعونها لتجوب الطرقات والشوارع بحثًا عن أبنائها، ويجعلونها تتوجع وتموت من الحُزن والكآبة، فلا صوت صراخها ونحيبها حرَّك في دواخلهم أية مشاعر، ولا عويلها ونجيعها أيقظ أي إحساس آدميّ في وجدانهم.

أين الإنسان من اغتصاب القطط والكلاب وتزويجها عنوةً، والمتاجرة بالجراء؟

أينكم من هتك دماء الأمومة على مذابح عِهركم؟ أينكم من انتهاك كل الأعراف؟ أينكم من استغلال أرواح تلك المخلوقات الربانية؛ تلك المخلوقات السماوية؛ تلك المخلوقات التي هي أحرى منكم بالإنسانية؟

عارٌ عليكم وبأس الانتقام منكم. لقد صِرتُ أبغضكم، وأصبحتُ أكرهكم، وحتمًا أشعر بالقرف منكم يا بني البشر.

••••

بدأ يومٌ جديدٌ وانتهى، القطة محتجَزة على الشرفة... وبدأ نهارٌ ومضى، وبدأ آخر، والقطة الصغيرة، مطرودة خارجًا أو متروكة وحدها على الشرفة، أو مفقودة، أبحث عنها، وبين هذا وذاك، أصبحتُ ضائعة بين النهار والليل، وبين الصباح والمساء.

تأخر الوقت وأظلمت الدنيا وحان موعد العشاء وحضرت(جولييت وبيلا)، إنما لا أثر(لجونيور)، وها هي أمه تناديه وتجلس قُرب الطعام من دون مسِّه ورنَّةُ صوتها والقلق المتصاعد مع كل وتر يتحرك في حنجرتها وهي تموء بتلك الطريقة المعينة؛ يجعلان الدموع تترقرق في

مُقلتيّ ففي كثير من الأحيان يتغيب (جونيور) عن مواعيد الطعام، وفي كل مرة يُصيبني الهلع من غيابه وأتوقع الأسوأ دائمًا لكثرة خوفي وقلقي عليهم، إلاّ أنه يعود ويكون بخير والحمد لله على هذا. وها هو الليلة غائب.

أقبلتْ (بيلا) تتناول الطعام، بينما ذهبتْ (جولييت) للبحث عن ابنها، وما هي سوى بضع دقائق حتى عادتْ ومعها الصغير المُشاغِب. سبحان الله كم وضع من الحنان والحُب في غريزة تلك القطة، وكم تُحب أولادها وتفضِّلهم على نفسها، ولازالت لحد الآن تُرضِعُهم وتهتم بهم ،وما تركتهم يومًا، وكم هي قوية وصلبة في وجه أي خطر يمكن أن يُسبِّب أي تهديد لأبنائها، فحينها تتحول كما اللبوة في وجه المخاطر والمعتدين. ولعل بعض البشر يتشبهون بحُب تلك الأم لأولادها وتفانيها بالاعتناء بهم وحرصها على حمايتهم، فهي رمزٌ للأمومة وعنوانٌ للتضحية بنظري، وهي حتمًا تستحق اللقب الذي أُعطي لها يوم حملت بأبنائها... الملكة... والقطة، الأنثى الوحيدة من بين جميع المخلوقات التي تُلقّب بهذا اللقب فور حملها، والشرف لها وحدها بالحصول عليه، وعلى كل مُربِّي القطط معرفة هذا الأمر، وبالتالي الشعور بالفخر والسعادة لنيل قطته هذا الامتياز... أنا شخصيًا خضتُ هذه التجربة، وكانت من أجمل التجارب التي مررتُ بها في حياتي مع قطتي، ومن أصعبها أيضًا.

قاربتْ الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وما ظهرتْ تلك القطة الصغيرة، كما وأن المنزل المقابل لازال مُقفلاً والأنوار مطفأة، فسُكانه أيضًا غائبون اليوم.

أنهيتُ سيكارتي وأغلقتُ ستائر الشرفة الخارجية بعد أن فرغ (جونيور) من تناول طعامه، اصطحبته أمه وأخته لركنهم الآمن كي يناموا، وأنا بدوري توجهتُ إلى غرفتي متعبة أريد النوم بعد نهار طويل ومُتعِب.

ربي احمي أولادي وقِطتي وأبعد عنهم المرض والوجع، وجنِّبهم المعاناة والألم وأعطني القوة والقدرة على الاهتمام دائمًا بهم، والاعتناء بهم، وتطبيبهم إن لزم الأمر. ويا إلهي هبني القدرة على الوقوف دائمًا قُرب تلك المخلوقات الجميلة البريئة والمدافَعة عنها، ويا رب قدِّرني وارزقني بحسنة هذه الأرواح حتى لا أدع أي قطط متروكة مهملة من دون مأوى أو ملجأ أو جائعة أو مريضة وحدها في الشارع. ويا رب السموات والأرض كبِّر عقول وقلوب الناس وأنِر عيونهم وضع بأرواحهم العطف والاهتمام بتلك المخلوقات وامنعهم من أذيتهم... رحمتك يا رب.

••••

اليوم بدأ نهاري مع طلوع الفجر كالعادة، ومرَّ، وكأنما مرَّتْ سنة، لكنه انتهى.

حضَّرت نفسي للدخول إلى غرفتي بعد أن ألقيتُ نظرة على قِططي وتمنيتُ لهم ليلة سعيدة، كلٌّ بدوره احتضنتُه وقبَّلتُه طويلاً.

استلقيتُ في سريري، ورأسي يدور بالأفكار، أفكار كثيرة تشغل بالي، وهموم ثقيلة تُرهِق كاهلي، معظمها تتمحور حول تلك القطة الصغيرة، قد يكون الجيران أخذوها معهم، قد يكونوا أيقنوا خطأهم وأدركوا عدم صواب تركهم للقطة وحدها فاصطحبوها معهم.

أغمضتُ عيوني على أملٍ بأن تكون أفكاري صائبة...

وفجأة هزَّتْ صرخة قوية سكون الليل، صرخة خوف، صرخة تحذير، صرخة فزع، وتداخلتْ الأصوات ببعضها، وعلمتُ بأن هنالك ولابد عِراك بين القطط...

نهضتُ كالبرق من سريري، وخرجتُ إلى الشُّرفة خوفًا من أن يكون قطٌّ ما يتهجم على (جولييت) أو أحد أبنائها. دائمًا أحضر ملاقط الغسيل معي تحسبًا لفضّ أي تشابك بين القطط، فأرميها بالقرب من المتعاركين لمنعهم من الوصول لبعضهم ولتفرقتهم...

كان الصوت يعلو أكثر وأكثر، والظلام حالك، وبالكاد سمح لي ضوء هاتفي بتمييز (روميو) يقف على حافة

شرفة الجيران وهو يتحضر للانقضاض، وصوت هسهسة ضعيف يصدر من زاوية الشرفة...

أمعنتُ النظر جيدًا، وإذ بتلك الهرة الصغيرة تصرخ من الخوف، صعقتُ من هول الصدمة.

ليتَ كل ما أتمناه أحصل عليه، فقد كنتُ أُصلِّي فور دخولي إلى سريري قبل قليل، وزيادة على صلواتي في كل ليلة؛ صلَّيتُ من أجل(روميو) الليلة وطلبتُ من ربي إرجاعه سليمًا معافى، إذ أنه غائب عن الحي منذ عدة أيام، ورغم انشغالي وأعمالي اليومية التي لا تنتهي ورغم قلقي على تلك الصغيرة، غير أن غياب(روميو) كان له حيّز كبير في ساعات الأيام الماضية، ففي أخر مرة تغيَّب فيها؛ عاد من بعدها مصابًا يرفع قائمه الأيمن ويقفز قفزًا، والألم بادٍ عليه مع كل حركة، المسكين لم يسمح لي بالاقتراب حين حاولتُ التقدُم نحوه لمعاينة مكان الإصابة، وأسرع مبتعدًا، ووقتها اكتفيت بوضع الطعام ومراقبته من بعيد علَّني أجد سبب العرج الذي أصابه، عسى أن تكون الإصابة طفيفة وسطحية ولا تستدعي نقله إلى الطبيب. وبالفعل تعافى سريعًا بوقتها... أما الآن فها هو يقف وجهًا لوجه أمام تلك الصغيرة، فما العمل الآن؟

(روميو) مُسالِم بطبعه ولا يتهجم على باقي القطط، من دون ذكر دفاعه الدائم عن (جولييت) وأبنائها طبعًا، إلاّ أنه

وكباقي القطط، يدافع عن منطقته بوجه أي غريب يقترب، والغريب اليوم هو تلك المسكينة التي شاء قَدَرها أن يضعها في هذا الوقت وفي هذا المكان تحديدًا. وقد شاء قدري أنا، ولسبب مجهول، أن تحدث كل هذهِ الأحداث أمامي. لا بأس، والحمد لله على كل حال وفي كل وقت وحين، المهم أن أتمكن من حلِّ النِّزال القائم بأقل الأضرار الممكنة، إذ معروف عن القطط بأنها مخلوقات مناطقية وتدافع عن منطقتها بشراسة، وأن محيطها تحكمه وتحرسه بحزم وقوة، فالويل لمن يتخطى حدوده ويحاول الدخول، فلا مكان للتسامح أو التساهل هنا، فلا مكان لقطة صغيرة دخيلة على الحيّ ومالكيه.

ناديتُ بصوتٍ خافتٍ، لعلَّ (روميو) يلتفت ويصرف النظر ويبتعد عن تلك الصغيرة، إلاّ انه لم يُبالي، وظلَّ يقترب أكثر، والقطة تتراجع أكثر إلى أن وصلتْ لزاوية الشُّرفة ولم يعد هنالك مجال للتراجع أكثر فقد حُوصِرتْ... الحائط وراءها (وروميو) أمامها ولا مجال للقفز، فحافة الشرفة عالية. وحينها فقط تيقنتُ، بأن القطة موجودة من الجانب الخارجي للشرفة، القطة الغائبة، الضائعة، القطة المنبوذة. هل من الممكن أنها طوال الليلة الماضية وطوال النهار اليوم والأيام السابقة، كانت تائهة وحدها؟ إذن فقد طردها أولئك الناس قبل رحيلهم، وتركوها هكذا في الشارع من دون أية مسؤولية ومن دون اكتراث... تبًا لهم.

يا لتلك المسكينة التعيسة، من المؤكد بأنها كانت مختبِئة في مكانٍ ما، خائفة، جائعة، مرعوبة، تشعر بالوحدة والحُزن، لكنها هنا الآن، حسنًا، وما العمل الآن، (روميو) على وشك الانقضاض ولا سبيل أمامي للوصول في الوقت المناسب...

بدأتُ برمي الملاقط، إلاّ أن (روميو) لم يتراجع. شعرتُ بالهلع فإن ضربة واحدة منه كفيلة بالإطاحة بتلك الصغيرة، فرحتُ أصفِّق بشكلٍ هستيريّ وبقوة... ونجحتْ الخطة وجفل(روميو) وفرَّ مبتعِدًا، ومثله فعلت القطة، وبلحظة اختفت.

شعرتُ بالإحباط وأصابني الإعياء الشديد. وبدون أدنى تفكير أسرعتُ بالنزول إلى الشارع بحثًا عن القطة، لكن من دون جدوى. صرتُ أدور حول ذاك المنزل وأبحث في الزوايا علَّني أراها، وما من أثر، اختفتْ وكأنها تبخَّرتْ.

عاودتُ الصعود إلى البيت خِلسةً خوفًا من أن يراني أحد من سُكان الحي.

وهذه ليلة أخرى سأقضي الباقي من ساعاتها على الشُّرفة.

رغم الطقس الحار والجاف نهارًا إلاّ أنه بصبح باردًا وغائمًا نسبيًا في الليل... صنعتُ لنفسي فنجانً من الينسون، ووضعتُ غطاءً على كتفيّ التففتُ به، وجلستُ أنتظر.

كنتُ على دراية تامة بأن جلوسي سيطول، وبأن انتظاري سيطول، غير أني جلستُ أنتظر وأنا فعليًا لا أدري ما هو هذا الشيء الذي انتظره. علَّني أنتظر ظهور القطة. ولكن وإن ظهرتْ؛ قد لن أتمكن من الإمساك بها، وإن تمكنتُ من إمساكها فماذا سأفعل بها... صِدقًا لا أعلم.

ومع تقدُّم ساعات الليل التي تمرُّ بطيئة بطيئة مليئة بالترقب، أزداد توترًا وحنقًا على حفنةٍ من البشر؛ على بعضٍ من البشر، على كُل البشر... وتمرُّ نفسي بعدة مِحن بين الانتظار والقلق، وبين الانصياع لإحساسٍ بداخلي يُنبئني بحدوث شيء ما وشيك لا أعلم فحواه، وأتعثر بين أفكاري وبين الأحاسيس التي تنتابني، والتناقض الفتَّاك الذي أشعر به ينهش من مُهجتي الصبر ويُجهض محاولاتي بالتعالي على ذاتي والتماسُك، وإن كان ظاهريًا فقط، إذ إنني بيني وبين نفسي أحتقن كالبارود وأكاد أن أنفجر من كثرة الحُزن والإحباط اللذين أعيش في ظلِّهما منذ أكثر من أسبوعين أو ثلاثة وربما أربعة، صِدقًا لم أعد أذكُر، إذ إنني أشعر وكأنني على هذا الحال من الترقُّب والخوف منذ الأزل، وقد ضاع عني الإحساس بالوقت حتى ما عدتُ أعي ربط الأحداث ببعضها البعض أو حتى تجزئتها، وأن أية محاولة مني لتذليل الحالة التي أعيشها حاليًا وُجِهَت بالفشل الذريع فقد توقف الوقت عندي، وتوقف الزمان، حتى أن التفكير توقف، ووحده بقيَ المكان ثابتًا في مكانه

ومكانه أصبح تلك الشرفة البغيضة، تلك الشرفة المقيتة، تلك الشرفة المجرمة، وإحساس الفزع والرهبة مما قد يحدث أتعبني، وتوجسات وتوقعات الأسوأ دائمًا وضربات قلبي التي أمست صخبًا، بحيث قد يسمعها المحيطون والساكنين وحتى من قد يمر صدفةً أمام بيتي، أفكاري ترهقني وأحاسيسي ترهقني، حتى النفس المتصاعد من صدري أصبح يرهقني.

رحتُ أتساءل: كيف انتهى بي المطاف على هذا الحال، وكأنني لم أعد أعرف أي شيء آخر سوى الانتظار وكأنني اعتدت هذا الانتظار وما عدت أستطيع فعل شيء آخر سوى الانتظار، ولكن ماذا أنتظر تحديدًا؟... ليس عندي أدنى فكرة.

وفي خضم هذه المعارك الدائرة بداخلي، يشدُّني صوت مواء ضعيف، هببتُ واقفة وقد أوقعتُ الغطاء عني وانسكب فنجان الينسون الذي لم أتذوقه حتى، وأضأتُ مصباح هاتفي، صِرتُ أُمشِّط الطريق من أوله إلى آخره بحثًا عن مصدر الصوت، إلاّ أن صدى الليل أضاع عليّ التركيز واختلطتْ المناظر أمامي وضاعت وسط خيالات العتمة وضوء المصباح، وبعدها عمَّ الصمت من جديد، قبل أن يصعق الليل بصرخة، هزَّتْ أركان المبنى الذي أسكن فيه وضعضعتْ أُسُس ذاك المنزل وأبوابه وحتى الشبابيك وزعزعتْ هدوء الحيّ بأثره... كتمتُ صيحة كادت أن تفلت

من فمي ووضعتُ يديّ الاثنتين أتحسَّس وجهي وجبهتي الملتهبة وأصوات الصراع الدائر في مكانٍ ما في أحد البساتين يزداد حدةً... انقطع عني النفس وقد أحسستُ بأن قلبي توقف للحظة عن الخفقان، وكأن الوقت تسمّر في مكانه لوهلة وبعدها بدأ صوت المطاردة وأنا ما عدتُ أعي أيّ شيءٍ سوى الرعب الذي شعرتُ به.

وددتُ الصراخ، تمنيتُ لو أن سُكان ذاك المنزل أمامي الآن لأصُبَّ جام غضبي عليهم وأخلِّص منهم ثأري، إذ شعرتُ بأنهم هم المسؤولون عن الذي يجري الآن.

عمَّ السكون من جديد، وعمَّا قليل يشقُّ الفجر طريقه.

شعرتُ بالضياع، وبحاجة ماسة للبكاء، وبتعب شديد تملَّك جسدي بالكامل لكثرة التوتر الذي أعيش فيه هذه الفترة. وبشيء من الاستسلام أغلقتُ الستائر وتوجهتُ إلى غرفتي.

ها هي ليلة أخرى تمر من دون نوم، وها هو يوم جديد يبدأ ولا أعلم ما قد يحمله لي... استلقيتُ لبعض الوقت علَّني أحظى بشيء من الراحة قبل استيقاظ قططي إلاّ أنني لم أستطع المكوث لأكثر من لحظة واحدة، فنهضتُ وصنعت القهوة علَّها تساهِم بإراحة أعصابي وتهدئتها.

كنتُ أحسُّ بحُزنٍ عميقٍ لا أدري سببه، لعلَّ العمل المتواصل طوال اليوم والسهر لعدة ليالٍ مُتتالية هما

السبب في هذا الإرهاق الذي أحسه. وكالعادة بدأ نهاري وانهمكتُ في أعمالي المعتادة وسرقني الوقت من ذاتي وأنساني لبعض الوقت همِّي والذي حدث في الليلة السابقة.

مضى النهار سريعًا، وحان الآن وقت الاستراحة قليلاً وتزويد الجسد ببعضٍ من الطاقة في فنجان قهوة سريع كمحطة لاستجماع القوة، إذ أني أشعر بأني مريضة اليوم وطوال النهار أتحرك ببُطء وأجرُّ قدميّ جرًّا... جلستُ على شرفة المطبخ لشرب قهوتي وأحضرت كرسي وناديتُ على قطتي الأم لتجلس معي. وضعتُ لها الموسيقى التي تحبها لنستمع معًا، لقد أهملتُها كثيرًا في الآونة الأخيرة وهي ليست معتادة على بُعدي أو انشغالي عنها، ومع أني لا أُحِبُّ أن يكونوا موجودين بقُربي هي أو أولادها عندما أدخِّن السجائر خوفًا من تأثيره السلبي عليهم إلاّ أن الشرفة كبيرة واستطيع ترك قطتي معي قليلاً، ورحتُ أحدِّثها وأدللها وأقبِّل وجهها الجميل المحبب إلى قلبي وهي تميل برأسها نحوي وتلتصق بي...(يا حبيبة قلبي ما أجملكِ وكم هو حنون هذا القلب الذي تملكينه في جسدك الصغير هذا).

التقطت أذناي صوت الجارة التي تسكن تحتي في الطابق الأول، تتحدث مع تلك المرأة في المنزل المقابل، وبسرعة توجهتُ إلى غرفتي حيث يمكنني السمع بشكلٍ أوضح، وكانت الجارة تُخبر المرأة عن القطة الصغيرة

بالفعل وتقول لها بأنها ظلَّت تسمع صراخ القطة ومواءها طوال الليلة الماضية، فتجيبها تلك المرأة بأنهم مشغولون وبأن القطة ليست لهم. تختم الجارة حديثها بالقول: (ولكن حرام تلك القطة)... وانتهى هنا الحديث، فعدتُ إلى قهوتي وقطتي وأنا أرتجف من الغضب، إنما هذا لا يهم الآن ولم يعد ينفع، فالقطة الصغيرة لم تعاود الظهور منذ الليلة الماضية، وها هو النهار يلملم أذياله والليل بدأ يسدل ستاره على الحي، والقطة اختفت.

شعرتُ بالأسف وقد عصفتْ بي رياح الأسى على تلك المسكينة، فما الذي حلَّ بها؟ وأين أمضتْ الباقي من ليلتها أمس؟ وأين قضت نهارها اليوم وساعاته؟ هل وجدها أحدهم وأشفق عليها وآواها؟ هل هي جائعة، أم أن أحدًا ما أطعمها؟ هل تشعر بالعطش؟ هل هي خائفة ترتجف من الوحدة؟... هل وهل والآلاف من الـ «هل» تدور في رأسي وتتفاعل بداخلي.

كنتُ غارقة بالحالة التي كنتُ فيها لدرجة أنني لم أنتبه لقطتي التي كانت تخدش الباب تريد الدخول إلى البيت، فحملتها ودخلنا معًا، وأغلقتُ الباب خلفي.

صِرتُ أمشي بين الغُرف من غرفة إلى غرفة من دون وعي، وصغاري يتتبعون خطواتي، إن أمشي يمشون حولي وإن أتوقف يتوقفون، بقيتُ على هذا الحال قرابة

الساعة من الوقت، فخرجتُ إلى الشرفة لتفقُد القطة ولرؤية (جولييت) إن كانت تنتظرني هي وصغارها مع أن الوقت لازال مبكرًا على موعد العشاء ولم أكن قد حضَّرتُ لهم الطعام بعد، حتى أني لم أكن أعلم ماذا أُطعمهم الليلة.

تجاوزتْ الساعة التاسعة مساءً بقليل والضوضاء تعلو في الحيّ بسبب وجود كل ساكنيه اليوم، والأصوات والضجة سبَّبا لي الصداع، وكنتُ بين الحين والآخر أسمع صوت مواءٍ ضعيف وخافت إنما من دون جدوى بالبحث، فإن العتمَّ لفَّ الشارع بأثره والمواء بعيد ويضيع صداه وسط المعمعة التي يحدثها ابن الجيران وكُرته التي يربي بها عاليًا أو يركلها نحو الحائط وفي كلا الحالتين الضجيج قوي وأنا لازلت على حالي من التعب، ووجع رأسي يزداد ونبض قلبي سريع لدرجة شعرتُ بأنه سيقفز من صدري وإحساسي بأن هنالك شيئًا ما سيحدث أثار أعصابي... فُتِحَ الباب ودخلتْ ابنتي الصغيرة ولحقتْ بها ابنتي الأكبر...

جلسنا على الشرفة نتبادل أطراف الحديث، وتُخبرني ابنتيّ عن نهارهما في العمل، ولكل منهما أخبارها، وأنا أستمع إليهما من دون تركيز، فأخر صوت سرق انتباهي وسمعي وسرق نظري وسرق كلّ حواسي بلحظة، هو صوت المواء حين أصبح قريبًا جدًا بحيث صِرتُ أتلفتُ حولي فوقفتُ أنظر الطريق وأجاهد لأرى وسط العتمة، حتى أن بنتيَّ وقفتا قُربي تبحثان معي عن مصدر الصوت وإذ

بإحداهما تصرخ:

– أُمي، ها هي القطة الصغيرة تقف قُرب المدخل.

وبدون أية لحظة تردد قلتُ لها:

– أحضري الصغيرة لي بسرعة.

وما هي إلاّ ثوانٍ معدودة حتى أصبحت القطة الصغيرة بين يديّ، أدخلتُها فورًا إلى غرفة ابني الشاغرة حيث أنه غائب عن البيت بداعي العمل، ولففتُ جسدها الصغير بمنشفة، وبدأتُ بتوزيع المهام على بناتي: واحدة لإحضار الماء والثانية لإحضار أي شيء لإطعام الصغيرة. وبما أن قططي كبيرة وتأكل طعامًا خاصًا، وبما أن القطة لا يمكن لها تناول الطعام الذي نتناوله نحن، فما كان أمامي سوى إطعامها الجبن المُثلثات... وضعتُها أرضًا قُرب وعاء الماء، كانت ترتجف ويهتز جسدها الصغير بقوة، بالكاد استطاعت الوقوف وأقبلتْ على الماء والطعام بطريقة جنونية... يا للمسكينة أوشكتْ على الموت من الجوع والعطش، شعرتُ بالألم يعصر قلبي.

كانت تأكل بسرعة كبيرة وقد خفت أن تختنق فأبعدتُها عن الطعام لتهدأ قليلاً وحضنتها وقرَّبتها من قلبي وأنا أشعر وكأنني أحتضن طفلاً صغيرًا بين يديّ، وهي بدورها راحت تلتصق بي أكثر وأكثر وبدأ رجفان جسمها يقل، ويقل معه خوفها وبدأت تُصدِر ذاك الصوت المحبب إلى قلبي كثيرًا

(صوت الخرخرة) وهو صوت تُصدره القِطط في حالتين: إن كانت سعيدة، أو كانت متألمة ومريضة. وفي حالتنا هذه هي الاثنتان معًا... يا للمسكينة.

بدأ صوت نَفَسها ينتظم وقد تمسكَّتْ بي وأسندت رأسها على ذراعي وتقوقعت في حضني وازدادت التصاقًا بي وكأنها تخاف ابتعادي عنها، فرُحتُ أمسِّد رأسها برفق وأُحدّثها بصوتٍ خافت وهي تنظر إلي بعينين تعبتين هدهما الخوف والجوع والنعس، وأغمضت عينيها ونامت أخيرًا بعد أن أكلت وشربت وشعرت بالأمان... نامت.

أرسلتُ ابنتيَّ للنوم، وبقيتُ أنا معها لغاية الخامسة صباحًا، وبعدها صنعتُ القهوة وجلست على شرفة المطبخ ولم أخرج إلى الشرفة الأخرى، إذ لم يعد هنالك من داعي لذلك، فالقطة أصبحت عندي، تنام في ظلي وبين أحضان قلبي، شربت قهوتي وأنا أشكر ربي وأحمده على سلامة الصغيرة وعلى عثوري عليها.

ارتديتُ ملابسي وخرجتُ من البيت ولم تكن قد أصبحت الساعة الثامنة بعد فلازال الصباح في أوله إنما أردتُ الذهاب إلى متجر لبيع طعام ومستلزمات الحيوانات والعودة سريعًا قبل استيقاظ القطة لإطعامها.

أحضرتُ لها الطعام المناسب لعمرها والعالي الجودة، وكان باهظ الثمن وقد تخطى ميزانيّتي واضطررت لأخذ

جزء من المال المخصَّص لإيجار البيت، إذ يجب ان تتغذى جيدًا فهي صغيرة وضعيفة وينبغي الاهتمام بغذائها. كما أني أحضرت معي الدجاج والخضار من أجل أن أعدَّ لها الحساء فهو مفيد جدًا لها.

ما إن رجعت إلى البيت حتى توجهت فورًا لرؤية القطة التي كانت مستلقية فحملتُها وقبَّلتها وداعبت وجهها الجميل... سبحان الله كم هي جميلة تلك الصغيرة وكم هي ودودة ولطيفة.

أحضرتُ القليل من الماء الساخن ووضعتُ ملعقتين كبيرتين من خل التفاح وحضَّرت المناشف النظيفة لتحميم القطة وفحصها جيدًا، إذ أني لمحتُ عرجًا في مشيتها، وبما أن الوقت بالأمس عندما أحضرتها كان متأخرًا، والكهرباء مقطوعة، أرجأت تنظيفها إلى اليوم، وأيضًا خوفًا من وجود أية حشرات في فروها فإن خل التفاح مفيد جدًا لمثل هذه الحالات.

ما إن بدأتُ بتنظيف وجهها ومسامعها وجزعها وقوائمها وبطنها وصولاً إلى ذيلها، حتى كاد أن يغمى علي... فقد كان جسد هذه القطة الصغيرة مليئًا بالخدوش والجروح العميقة يا إلهي أيها العظيم الجبار، كم تتألم تلك المسكينة.

وللحظة تجمدتُ في مكاني، إنه قطٌّ ذكر. صُدِمتُ من

هول المفاجأة، يا حبيبي كم أنت صغير... قط أبيض وأسود ورمادي، ثلاثي الألوان.

أنهيتُ حمام الصغير بسرعة ولففته بمنشفة ناعمة ورحتُ برفق أُجفِّف جسده الصغير مع مراعاة الجروح الموجودة، كان يرتجف بين يديّ وكانت عيناه متعبتان وتفتقد تلك اللمعة، وضعف جسده ووهن قوته أقلقاني كثيرًا إذ أن العظام كانت تبرز من تحت فرائه الذي يبدو رقيقًا جدًا بحيث أنه يمكن رؤية الجلد الشفاف تحته، ونظرته زائغة لا تركيز فيها، ولم يكن بإمكانه الوقوف جيدًا لوحده.

بعد تأكدي بأنه أصبح جافًّا تمامًا، بدأتُ بتنظيف جروحه بالدواء المعقم خوفًا من أية مضاعفات إن التهبت جروحه فإن افتقاره للغذاء والمناعة قد يتسببان في تأخر التئام الجروح الكثيرة التي تغطي هذا الجسد، وآثار الخدش والعض في فخذه الأيمن من الداخل كانت أكثر ما أقلقني.

بعد أنتهائي من تنظيف الجروح ووضعي المراهم المُعَقِمة الضرورية، حان الآن وقت إطعام الصغير، وكنت أتساءل إن كان معتادًا على تناول الطعام الجاف المخصص للقطط أم أنه لا يحبه. أحضرت صينية ووضعت عليها وعاء الطعام ووعاء الماء وتركته لأرى ماذا سيفعل، إلاّ أنه ظلَّ جالسًا ولم يتحرك. شعرتُ بالخوف، إلاّ أني شجَّعتُ

نفسي وقلت لا بد بأنه لازال متعبًا من كل الذي حدث معه خلال هذا الشهر وبالأخص في الأيام الأخيرة فقد كان وحده في العراء وقد عانى الجوع والعطش وتعرض للكثير من العض والضرب من قِبل قطط الشارع.

كنتُ سارحة بهذه الأفكار ومشاعر الحزن توجع قلبي، وبالرغم من دموعي الغزيرة المتساقطة التي كانت تحجب عني الرؤية؛ حملتُ الصغير ووضعته قرب صينية الأكل وتوجهتُ لإحضار الأشياء الخاصة بتنظيف صندوق الفضلات الخاص بالصغير الذي وضعتُه له بالأمس. وكنت أستبعد كثيرًا أن يكون قد قام باستخدامه ومع هذا أردتُ التأكد، وما أن فتحت الصندوق حتى كدتُ أفقد الوعي، فالصغير يُعاني من إسهال شديد مدمّم... يا إلهي أيها العظيم ارحمني.

بسرعة أنهيت التنظيف وتوجهت إلى المطبخ من أجل إعداد الحساء، فالصغير يعاني من الجفاف ويجب الإسراع بإعطائه السوائل لكي يتوقف الإسهال بأسرع ما يمكن من أجل أن أرى ما يجب فعله بخصوص الدم.

انتهيتُ من تحضير الحساء، وأضفتُ عليه الأرز الناعم فهو كفيل بوقف الإسهال، وكم كانت فرحتي كبيرة عندما بدأ الصغير بتناول الطعام وقد أحبَّه كثيرًا، وما إن شبع حتى عاد للنوم، فتركته ليرتاح وبدأت بأعمالي اليومية المعتادة.

من الجيد أنه اعتاد بسرعة استخدام صندوق الفضلات وإلاّ لكانت الفوضى عمّت المكان.

كنتُ بين الحين والآخر أطمئن على الصغير وهو نائم مسترخي بعد أن أكل جيدًا وتناول الحساء وأحبَّ الطعام الجاف فكان يأكل من هذا ويأكل من ذاك، وأنا حرصتُ على ملأ كلا الطبقين، كما أنه يشرب الماء بكثرة وهذا أراحني.

آمل أن أكون استلحقته تداركًا لأي تصعيد في حالته فإن وضعه الصحي حساس جدًا، إنما ليست جراح جسده ما كانت الوحيدة التي تشغل بالي فإن الجراح والخدوش الموجودة في جسده الصغير ورغم كثرتها، يمكن أن تشفى، إنما خوفي الأكبر كان من الجروح المخفية التي لا تُرى، فقد عانى المسكين كثيرًا من جراء مكوثه وحيدًا، جائعًا، مُلاحَقًا من قطط الحي، وقد تعرض للكثير الكثير من الضغط النفسي والتعذيب الجسدي ومخاطر الشارع وهو لازال صغير بالكاد يبلغ الأربعة أشهر وكما بدا لي،فهو ليس معتادًا على العيش وحده في الشوارع فلا قوة لديه للمدافعة عن نفسه ولا خبرة لديه للاختباء وحماية نفسه من أيّ هجوم، وقد بات واضحًا أمامي بأنه يعاني من أزمة نفسية حادة وقد يستغرق وضعه الكثير من الوقت لمعالجته وتخليصه من حالته تلك وقد يستلزم الوضع الكثير من الصبر والوعي مني لكي أتمكن من مداواته.

إن همي الأكبر الآن هو إيقاف الإسهال وانتظار ما يحدث بعدها، إذ من الممكن ان الإسهال يكون هو المسبِّب الرئيسي لوجود الدم، وبناءً على هذا الأمل أمضيتُ نهاري وقد قسَّمتُ أوقاتي بين الصغير وقططي وأولادي والبيت.

مضى النهار وأنا أركض من غرفة إلى غرفة وأدور في البيت مسرعة من عمل إلى آخر، وقططي يلحقون بي بشكل متواصل ويريدون الدخول إلى الغرفة المقفلة حيث أضع الصغير وحيث أمضيت معظم ساعات النهار أتردَّد عليها بين الحين والآخر، وهذا ما استفز القطط وزاد من حشريتها وحب الاستطلاع لديها، فكنتُ كلما أردت الدخول إلى تلك الغرفة للاطمئنان عن الصغير، أدور حول الباب وأتعمد العودة إلى المطبخ فتلحقني القطط لأعود بعدها وأدخل الغرفة وأقفل بابها بسرعة، وقد شعرت القطط بوجود شيء غريب ورائحة غريبة في البيت فكانوا يتنقلون بين الغرف رافعين أنوفهم الصغيرة الجميلة ويشتمون الهواء من حواليهم، إن شكلهم قمة بالفكاهة، وعيونهم تلمع وتلك النظرة المضحكة على وجوههم وحُب الاستطلاع يسيطر على تحركاتهم... سبحان الله ما أجملهم وكم أحبهم وأعشق وجودهم.

خرجتُ مرتين إلى الشرفة، وفي المرتين لم أرَ جولييت ولا أحد من أبنائها، لا بد أنهم نائمون في مكانٍ ما، وحتى (روميو) لم يظهر طوال النهار، أعتقد بأن الحرارة المرتفعة أبعدتهم

عن الشارع، فالحرُّ اليوم فظيع، والمنطقة تمرُّ بمرتفع جوي سيظل تأثيره مسيطرًا لعدة أيام.

بدأت بشائر المساء تظهر، ومع تراجع حدّة الشمس وحرارتها المرتفعة وأشعتها القوية، بدأت نسمات عليلة ترطب الأجواء، وقد شارفت الساعة السابعة والنصف، وجميع قططي نائمون، أعتقد أنه الوقت المناسب لصنع القهوة فإن فنجان القهوة الآن له مفعول السحر بعد نهار طويل ومتعب لم ينتهِ بعد. صنعت القهوة وحملتها إلى شرفة الغرفة حيث ينام الصغير حتى يظل أمام عيوني طوال الوقت ولا أغفل عنه ولا ثانية وأكون بقُربه عندما يستفيق لكي يشعر بأني معه وليس وحيدًا ومتروكًا.

وأخيرًا جلست اليوم، أشعر بأن عظامي تؤلمني وأن جسدي كله قطعة واحدة متشنجة. سكبتُ القهوة وأشعلتُ سيجارة ونظري كله متجه حيث ينام الصغير، أتأمله، كم هو صغير، لقد اعتدتُ على أحجام قططي الكبيرة، وكم يبدو هو ضئيل أمامها وكم هو جميل، سبحان خالق الأكوان سبحان الله سبحانك ربي كم وضعت من تفننات في هذا القط فإن لكل تفصيل فيه رواية... ومن نقشة على جزعه الأيمن بدأتْ روايتي أنا، وبدأ عشقي له.

هو هِرٌّ ثلاثي الألوان: أبيض، أسود، ورمادي يميل إلى الزرقة، مع تداخل للألوان بحيث يغمق الأبيض للون كريمي

والرمادي إلى باج مطعّم ذهبي على شوكولاتة، يغطي اللون الأبيض المساحة الأكبر من جسده ووجهه وقوائمه الخلفيتين مزيج من الرمادي الأزرق مع دوائر سوداء على ذيله، ووجهه أبيض، وجبينه يميل إلى اللون الكريمي الذهبي والشوكولاتة، وهنالك في الوسط ناحية الشمال بقعة صغيرة وكأنها قلبٌ ليست واضحة معالمه، وبينما بالجهة المقابلة ناحية اليمين هنالك قلبٌ كبيرٌ واضح وضوح الشمس في وضح النهار وقد جمع كافة الألوان إنما اللون الرمادي الأزرق هو المسيطر، أُذناه طويلتان نسبيًا، مع وجه مستدير نوعًا ما، وعيناه رغم التعب، فاتنة مكحّلة بخطٍ أسود داخل استدارة الأهداب.

إنه من نوع (كاليكو) كما قطتي الأم، وتذكر المراجع أن قطط الكاليكو عادةً ما تكون ٢٥ ٪ إلى ٧٥ ٪ بيضاء مع بُقع برتقالية وسوداء كبيرة أو أحيانًا بقع كريمية ورمادية، ومع ذلك يمكن أن يكون لقط كاليكو أي ثلاثة ألوان في نمطه، ولا ينبغي الخلط بين الكاليكو والسلحفاة والتي تحتوي في الغالب على طبقة مرقطة من الأسود البرتقالي أو الرمادي الكريمي مع علامات بيضاء قليلة نسبيًا أو معدومة، ومع ذلك عادةً ما يُسمى نمط الكاليكو ذات التلوين المخفف (كاليمانكو أو النمر الغائم « كاليكوس»).

وعندما نقول «الألوان الثلاثية للقطط» هذا لا يعني الذكور على الإطلاق، على العكس تمامًا فإن القطط

الذكور ذات اللون المماثل هي ظاهرة نادرة جدًا، وتوضح الإحصاءات أنه من كل ٣٠٠٠ من ولادات القطط ذات الألوان الثلاثية الإناث، يولد ذكر واحد فقط، وهو في الغالب مصيره العقم.

في الواقع من الصعب جدًا العثور على قط ذكر ثلاثي الألوان، إن ذكر (كاليكوس) هو شذوذ وراثي، القطط مثل البشر لديها اثنان من (الكروموسومات) الجنسية، تحمل (الكروموسومات) الجينات وتُحدِّد سمات الحيوان.

تمتلك قطط (كاليكو) بعض الخبايا والأسرار التي لم يتم الكشف عنها سوى مؤخرًا، وأصبحت من أشهر أنواع القطط وتحديدًا عام ٢٠٠١ عندما أصبحت القطة الرسمية لولاية (ماريلند). تشير كلمة (كاليكو) فقط إلى نمط اللون على الفراء من قماش (كاليكو) المطبوع بالألوان وليس إلى سلالة من سلالات القطط. بعض الناس لديهم إعتقاد خاطئ بأن القطط (كاليكو) تشكل سلالة معينة من القطط ومع ذلك فإن (كاليكو) هو وصف لتلوين القط، ويمكن أن تكون القطط من سلالات عديدة عبارة عن (كاليكو) أو ثلاثيّ الألوان حقيقي نتيجة لتراثها الجينيّ، يمكن أن تحتوي ١٦ سلالة مختلفة من القطط على تلوين (كاليكو) ويمكن أن يحدث ذكر (كاليكوس) من بين أيّ من هذه السلالات.

هنالك عدد من الأساطير الرائعة حول ذكور قطط (كاليكو) في حين أنها نادرة كما ذكرت سابقًا مع وجود ذكر واحد من بين ٣٠٠٠ ولادة للإناث لقطط (كاليكو)، وإن كل ذكور (كاليكوس) تقريبًا عقيمة في الواقع واحد فقط من كل ١٠٠٠٠ (كاليكوس) ذكر لديه القدرة على الإنجاب. إن أصل قطط (كاليكو) غير معروف ولكن يُعتقد أنها نشأت في مصر ومن هناك تم نقلها عبر البحر الأبيض المتوسط إلى بلاد ساحلية مثل فرنسا وإسبانيا وإيطاليا. وجاءت الشهرة الواسعة التي تحظى بها هذهِ القطط بسبب معطفها والنمط الخاص به.

القطط الثلاثية الألوان لها سحر خاص، هذه الحيوانات الأليفة اللطيفة تنضح بطاقة خاصة وإيجابية وهي موجودة ثلاث مجموعات كبيرة (كاليكو، السلحفاة، والتاب). تتميز قطط (كاليكو) بتاريخها الغامض ونشأتها غير المعروفة ناهيك عن مظهرها الفريد من نوعه، والفضل يعود إلى معطفها ثلاثيّ الألوان الذي لن تجده في أغلب القطط الأخرى. وبجانب معطفها نجد أن هذه القطط تمتلك عيونًا دائرية قمة في الجمال وجسمًا ممتلئًا قليلاً ولكنه قوي، ورأس دائرية وآذان طويلة نسبيًا، وتمتلك الكثير من الصفات الفريدة من نوعها، فهي تشتهر بشخصيتها الشجاعة والقوية والمستقلة بطبيعتها، تعشق التواجد بجوار أصحابها، مخلصة للغاية، تحب الأجواء العائلية

وتشعر بالدفء أثناء التجمعات، ويمكن أن تجد بعضًا منها قطعًا هادئة ومنعزلة في كثير من الأحيان.

ربما لم تتاح لك الفرصة من قبل للسماع بهذا النوع من القطط (كاليكو كا)، أو حتى قطط (إيزابيل)، وهذا الاسم يُطلق فقط على القطط ذات اللون الثلاثي، ومصدر هذا الاسم جاء من الملكة (إيزابيلا) ملكة إسبانيا. وبغض النظر عن سلوكها الغامض، فإن الحصول على قط من نوعية (كاليكو) هو أمر رائع ومثير للغاية.

هنالك بعض الثقافات في معظم دول العالم تؤيد فكرة أن القطط التي تمتلك خليطًا من الألوان مثل قطط (كاليكو) تجلب الحظ الجيد، وفي الولايات المتحدة الأمريكية يُشار إليها بقطط المال، وفي اليابان يوجد تمثال (المانيكو نيكو) الذي يجسِّد قط (كاليكو) في شكله. ويعتبر البعض أن قطط (كاليكو) قطط السحر وعلامات الحظ السعيد، وتُعرف في جميع أنحاء العالم بهذه الصفة ذلك نظرًا لندرتها. بالنسبة للعديد من التقاليد وخاصة اليابانية فإن وجود قطة ثلاثية الألوان، هو مرادف لحُسن الحظ وتجلب الثروة إلى المنزل الموجودة فيه والمصير السعيد، وقد اعتاد البحارة اليابانيون السفر مع قطط (كاليكو) في بعثاتهم البحرية، وقيل (كاليكوس) لحماية البحارة من العواصف ومن أية روح غاضبة. ووفقًا للفلكلور الإيرلندي فإن قطط (كاليكو) تعالج الثآليل. وفي إنكلترا

هي رمز حيّ للدفء والحماية. ويعتبر (كاليكوس) الذكر، محظوظًا بشكل خاص لأنه نادر جدًا وفريد من نوعه.

وبما أن القطط (كاليكو) تتميز بفروها النادر والجميل وأن سبب هذا الجمال في اللون يعود لطفرة جينية تتشكل في الحمض النووي للقطط، فقد قام العديد من المربون بإعادة إنتاج هذه الظاهرة من خلال التهجّن لكن حال ذلك دون جدوى، لأن في الحقيقة ذلك يحدث بأكبر قدر من الحظ، هذا هو حال هذه الطفرة فهي لا تلبِّي أيى معايير جغرافية كيف ما كانت، ويمكن أيضًا لجميع هذه الأجناس أن تتأثر، بحيث قد تجد أن قطط الأزقة يمكنها أن تلد قططًا من نوع (كاليكو)، وقد لاحظ العلماء في هذا المجال أن هذه تعتبر هدية من الطبيعة.

••••

أعادني المواء الضعيف للصغير من شرودي وأفكاري التي تتزاحم في رأسي، وها هو يناديني، فأسرعتُ اليه وحملته بين ذراعيّ وقربته من قلبي وقبلت وجهه الجميل وصرت أُحدِّثه وأسأله ماذا يريد وقرَّبته من الطعام، إلاّ أنه بدا منزعجًا وتوجه إلى صندوق الفضلات، فعلمت بأن المسكين يتألم من بطنه ويعاني من المغص والتشنجات في مصرانه، وما إن خرج حتى ارتديتُ القفازات وبدأت

بفحص الصندوق، وبدأت يداي ترتجف من هول ما رأيت! إن معدة الصغير مليئة بالأشياء الصلبة كالخشب والبحص والحديد، وحتى أنه يوجد قطع من الزجاج والكثير من الدم!

كدتُ أفقد الوعي من هذا المنظر الذي أراه وقد شعرت بالضيق الشديد ولوهلة أحسستُ بأن النفَس انقطع عني، وبأن قلبي توقف للحظة عن الخفقان، ومع شعوري بالوجع الذي أحسستُه، من الحزن العميق على هذا المسكين. تملَّكني الغضب، وأُصِبتُ بنوبة من الهلع... ما العمل؟ لا بد أن المسكين تناول كل هذه الأشياء من كثرة الإحساس بالجوع طوال الثلاثة أيام والثلاث ليالٍ التي أمضاها في العراء وحده... حبيبي أيها الصغير المسكين لا تقلق فإني بقُربك، (أُمك بقربك) ولن أدعك وحدك ولن أتخلى عنك ولن أدع أي شيء يؤذيك، وسوف أدافع عنك وأحميك يا حبيب قلبي، إنك قوي وشجاع وسوف نتخطى معًا هذه المرحلة الصعبة، تشجع يا قلبي أنا، يا عمري أنا، سوف أساعدك لتشفى، لا تقلق أيها الصغير.

كنت أحدِّثه والدموع الساخنة تنهمر من عينيّ فتحجب الرؤية عني، وإحساسٌ بالحريق وكأنها نارٌ بداخلي تلسع داخل وجداني. انقبض صدري وشعرت وكأن يدًّا تتمسك بعنقي، تخنقني وتزهق الروح بداخلي... حملتُ الصغير بين يدي وبطنه للأعلى، وصرتُ أُمسِّد برفق علَّني بهذا أريحه قليلاً.

بقينا على هذه الحالة لثلاثة أيام متتالية. كان الصغير يأكل وينام بين يدي، وصِرتُ أنام معه في الغرفة ولا أتركه، و نقلتُ أغراضي الخاصة التي أحتاجها من غرفتي كي أظل قُربه ولا ابتعد عنه.

كان لا ينام جيدًا، ويقلق في الليل كثيرًا، ودائمًا يئنُّ وكأنه يرى حلمًا أفزعه، ويرتجف ويهبّ من نومه مذعورًا، فاحتضنه وأمسِّد رأسه وأغطي بطنه بحرام رقيق، وأُدلكه بلطف كي يقل تشنج معدته ويستكين ألمه ويشعر بالراحة قليلاً، وأحمله كالطفل وأهدهده وأروح أمشي في الغرفة ذهابًا وإيابًا... وأعتقد بأن هذه الطريقة ناجحة، إذ لا يلبث أن يعود للنوم وقد هدأ.

خِفتُ كثيرًا من أن تكون كل هذه الأجسام الصلبة التي ابتلعها الصغير قد جرحت معدته أو تسبَّبت في تمزق أمعائه، وكنت دائمًا أُهيء نفسي للأسوأ، و أكون على أتمّ الاستعداد للتحرُك بسرعة بحال حدوث أي طارئ في صحة الصغير قد تستدعي نقله إلى المستشفى. وكنتُ قد تواصلتُ مع الطبيب البيطري الذي أتعامل معه مؤخرًا، وأخبرته عن الصغير وعن وضعه، وزوَّدته بكل التفاصيل المتعلقة به وعن الطريقة التي وجدته بها وعن الحالة التي هو فيها الآن، وقد أخبرته عن الإجراءات التي أتبعها مع الصغير، وقد طلب مني الطبيب الاستمرار بما أفعله، وأن أُخبره فورًا بحال حدوث أي تغيير في صحة الصغير.

داومتُ على الاهتمام المكثف بالصغير والمراقبة الدقيقة له ولوضعه الصحي والنفسي، إذ بدا أنه أصبح مرتاحًا أكثر وقلَّ تشنُج بطنه، وأصبح أقل قلقًا، وبدا أن أعصابه هدأت قليلاً، وأن نوبات الخوف التي كانت تنتابه ليلاً أصبحت شبه معدومة، فكان ينام على شعري على الوسادة ويلتف به بشكل يوجعني، أو ينام قُربي ويلتصق بي بقوة وقد تخلى قليلاً عن محاولاته للرضاعة من يدي أو عنقي وحتى أذني وشعري، حتى من ملابسي وأكمام سترتي، وقد استعاض عنها بالعجن على وجهي ورأسي، ومع أن هذا كان يؤلمني أحيانًا ويخدشني بمخالبه إلاّ أنه لم يتعمد مهاجمتي عن قصد، فكنتُ أتعاطف مع وضعه، إنما بذات الوقت أعلِّمه حُسن التصرف، لكن حالته الصحية لم تسمح لي بعد أن أضع له القوانين وأن أمنعه عن القيام بالأشياء الممنوعة، مع العلم بأنه لا موانع عندي أمام قططي، فكل شيء مسموح لهم، وكل شيء مقبول منهم، فأنا أسيل كالمعجون أمامهم، وضعيفة أمام نظرة من عيونهم، وبالتالي، فأنا وكل ما يتعلق بي مِلْكٌ لهم ورهن إشارة من أيّ مخلب من أيّ أحد منهم.

كنتُ أواظب على وضع الأرز إن كان ناعمًا أم حَبًّا في طعام الصغير الذي كنت أعده له، وأما فيما يتعلق بالطعام الجاف؛ فقد أحضرت له (دراي فود) خصيصًا لوضعه إذ أنه غني بالكربوهيدرات والبروبيوتيك، الذي يعزِّز البكتيريا

الجيدة داخل الأمعاء، ويُساهم بتقوية الجهاز الهضمي والمناعي في جسم الصغير للقضاء على البكتريا الضارة والفيروسات، ولحُسن الحظ أن الإسهال توقف، إنما الذي لم يكن بالحسبان هو الإمساك، فبعد عدة أيام من الإسهال الحاد؛ مع العلم بأن له مردود جيد فيما يختص بالأشياء الصلبة التي تناولها الصغير سابقًا، إذ ساهم بإخراج كل محتوى معدة وأمعاء الصغير، وبالتالي ساعد في تنظيف جهازه الهضمي، إلاّ ان الخوف الآن من جراء الإمساك، هو أن يكون هنالك انسداد في الأمعاء كقطعة من الأجسام الغريبة التي كانت تملأ بطن ذاك المسكين، فما كان لا بد منه إنني قلّلتُ استخدام النشويات في طعامه، وأدخلتُ الخضار أكثر إلى نظامه الغذائي، وطبعًا أخبرت الطبيب عن كل المستجدات التي تحدث وأعلمته بما فعلته، فاستحسن تصرُفي ورد فعلي السريع الذي ينمُّ عن الوعي وحُسن التصرف رغم الأزمة التي أمرُّ بها مع الوضع الصحي الدقيق للصغير، والمحبة التي بداخلي واهتمامي، وقد شكرته بخجل، وقلتُ له:

-أتمنى أن لا أراك ولا مرة أيها الطبيب إلاّ لشراء الطعام والمكافآت والألعاب لقططي.

وافقني الطبيب، وهذا يعني... كدعاء من قلبي إلى ربي بأن يُبعد المرض عن صغاري.

••••

مضى الأسبوع الأول لوجود الزائر الجديد في بيتي، وقد بدأت بوادر الشفاء تتضح أكثر فأكثر، فقد توقف الإسهال وتوقف الإمساك وبالتالي توقف خروج الدم. وبدأت الصحة الجيدة تظهر على الصغير وتبرز جليّة من طريقة تناوله للطعام، فبعد أن اعتاد وجود الطعام بوفرة أمامه وأنه يستطيع تناوله متى أراد، أصبح يأكل بتمهل وهدوء وما عاد يبلعه بسرعة كما كان يفعل في الأيام الأولى، وبعد أن هدأت أعصابه واطمأن باله بأن لا خطر يتهدده، أصبح ينام جيدًا، وبعد أن اعتاد قُربي منه، صار يثق بي أكثر وتعلَّق بي وبوجودي أكثر، وقد انعكس هذا على ثقته بنفسه فما عاد يخاف إن سمع صوتًا قويًا أو يرتجف كلما دخل أحد إلى الغرفة، وقد بدا جسمه ممتلئًا وقد اكتسب بعض الوزن وحتى فراؤه أصبح ناصعًا يلمع وملمسه حريريّ وبدت ألوان معطفه زاهية ونظرة عيونه صافية، إلاّ أنها لازالت نظراته حائرة وحزينة بعض الشيء وهذا الشيء يعذبني ويحزنني.

كان أولادي يقومون بزيارة الصغير والجلوس واللعب معه كلما سنحت لهم الفرصة، وهو اعتاد زياراتهم ووجودهم وما عاد يخاف أو يختبئ إن دخلوا الغرفة بل العكس هو الصحيح إذ إنه أصبح يلعب معهم وبطريقة مؤذية في بعض الأحيان ويسبِّب لهم خدوشًا في أياديهم وأقدامهم، إذ يقوم بهجمات مفاجئة أحيانًا، وهنا كان لا بد من التدخل، فبرغم أني لا أقوم بقص أظافر قططي إلاّ أني أُجبرتُ على

قصّ أظافره، ورغم أني لا أحب تعنيف صغاري أو معاقبتهم إلاّ أنني اضطررت لمعاقبته، بتركه وحيدًا والخروج من الغرفة حين يقوم بعضٍّ أو خدش أحد، ولجمه في بعض الأوقات وتأنيبه من أجل أن يتعلم حسن التصرف تمهيدًا لدمجه مع القطط الأخرى... (عائلته الجديدة).

قططي مستقلة بطبعها، ولا تحب أن يقترب منها أحد، وصعبة ومتعلقة بي كثيرًا، وتحب روتينها المعتاد ولا تحب المفاجآت، وخاصةً هذا النوع من المفاجآت، ولن يكون من السهل أبدًا جعلها تعتاد على وجود قط غريب في البيت يشاركها غرفه وأثاثه وطبعًا أنا، وقططي متمسكة جدًا بعاداتها وأشيائها الخاصة، أعلم بأن مهمتي صعبة كثيرًا وأعلم بحجم الموقف الذي أنا بصدده وأعلم ضخامة الحدث ومردوده على كل القطط في البيت، فليس من السهل جعلها تعتاد على بعضها وتتقبل وجود بعضها البعض، أو الاستعداد لتشارك الأماكن وباقي الأشياء إلاّ أنه لا مجال أمامي سوى المحاولة، والمحاولة هنا، تعني أنه لا مجال للفشل.

فكَّرت بخطة، وبدأت بتنفيذها على الفور، فصِرتُ أحضر ألعاب قططي التي يلعبون بها والمراتب التي ينامون عليها إلى غرفة الصغير وأضعها أمامه، ومن جهة أخرى، أضع أشياءه والعابه وأغطيته في مختلف غرف البيت الأخرى لأعود وأبدلها بعد عدة أيام، من أجل أن تعتاد القطط

على رائحة بعضها البعض، فهذا كفيل بجعلها مطمئنة ولا تشعر بأي تهديد إن كان بشكل مباشر أم غير مباشر. وبعدها أصبحت أفتح لها باب الغرفة قليلاً، وقليلاً هنا، أعني بها (عدة سنتيمترات فقط، تسمح لها برؤية بعضها من دون الاقتراب أو الاحتكاك المباشر).

بعدها أصبحتُ أضع الطعام وراء الباب من الجهتين، فكان الصغير يأكل من أمام الباب من داخل الغرفة، وبقي القطط تتناول الطعام من الجانب الآخر، ولعدة أيام متتالية.

بعدها صرت اُدخل قططي إلى غرفة بناتي وأقفل الباب وأفتح باب غرفة الصغير وأتركه يستكشف بقية أقسام البيت، لأعود وأُدخله إلى غرفته وأُخرج باقي القطط، كذلك لعدة أيام مع استمرار تبديل الأغراض بين الطرفين.

في خضّم هذا كله، لم أُهمل جولييت وابنيها أبدًا، ظللت أطعمهم وأحميهم من أي هجوم من القطط الغريبة، وأدلِّلهم وأتحدث معهم حتى لو من على الشرفة، مع أن جونيور تغيَّب لعدة أيام مما أحزنني وأقلقني كثيرًا، حتى أن أُمه كانت تجوب الحي بحثًا عنه، وقد حزنتْ كثيرًا وكانت بالكاد تتذوق الطعام، ورغم أنه عندما عاد، كان مصابًا، يعرج من قدمه وعلامات الشجارات التي خاضها تظهر بجرحٍ طويل فوق عينه اليمنى، إلا أنه عاد، وهذا ما يهم.

هنالك بعض القطط الغريبة والتي لم أرها سابقًا في الحي، بعضًا منها مرَّ مرور الكرام ومضى، إنما هناك ثلاثة لا أعلم من أين أتوا، صاروا يترددون باستمرار وبشكل دائم إلى الحي، بحيث صرت أراهم كلما خرجت إلى الشرفة لإطعام (جولييت) وابنيها أو للاطمئنان عنهم، وقد حدث الكثير من التصادم بينهم، واضطررت عدة مرات للتدخل لفض التعارك وتفرقة القطط عن بعضها، إن كان برمي الملاقط أو الحصى أم برشق الماء. حتى أني غيرت مواعيد تقديم الطعام لـ(جولييت) وابنيها، فمرةً أُبكِّر الموعد ومرةً أؤخِره، تحاشيًا لأية مواجهة بين القطط، وعندما ينتهون ويذهبون، أعاوِد وضع الطعام لباقي القطط. كما أن (روميو) صار يأتي كلما حضرت (جولييت) وابنيها ويجلس قُربهم يراقب المنطقة ويحرسهم لحين انتهاءهم من الطعام، ويذهب عندما يذهبون.

في أحد الأيام، وبينما كنت على الشرفة أُطعم (جولييت) وابنيها، وإذا بابنة الجيران تخرج إلى تلك الشرفة الملعونة في الطابق الثاني، ولم أعد أدري الآن إذا كنت سأظل أسميها (الشرفة الملعونة)، أم أنها تحولت بنظري إلى (الشرفة الميمونة)، وقد لفتني أنها تنظر ناحية بيتي، تحديدًا نحوى نافذة الغرفة التي يوجد الصغير بداخلها، فعلمت من الطريقة التي نظرت بها إليّ، بأنها رأت الصغير على حافة النافذة حيث أنه يحب الوقوف هناك ومراقبة الشارع من

الداخل، وبما أن ابنتي الصغرى كانت تجلس معي فطلبتُ منها مرافقتي إلى غرفة الصغير، أردت التأكد إن كانت رأته حقًا، وكما اعتقدتُ؛ كان الصغير يقف على النافذة بالفعل. فقالت لي ابنتي:

– أعتقد أن الفتاة رأت الصغير.

قلتُ لها:

– وإن يكن.

– ماذا لو أرادوا استرجاعه؟

– إنه ليس ملكهم في الأصل لكي يسترجعوه. حتى أنهم لا يهتمون لأمره ولا يريدونه.

– ماذا ستفعلين إن رنّ جرس الباب وجاءوا يُطالبون به، فهل ستسمحين لهم بأخذه؟

– فليتجرأ أحدٌ منهم ويقترب من منزلي أو يطرق بابي، فليتجاسر أحد ما على أخذ صغيري مني، فوالله لأخرب الدنيا فوق رؤوسهم.

– لكنه ملكهم، أليس كذلك؟

– لا، ولا! هو ليس ملكهم، وهم لا يُبالون به أو بما حدث له وإلاّ لما كانوا طردوه في الأساس.

تملكني الغضب لمجرد التفكير بأنه من الممكن أن يطالبوا بأخذ الصغير، وشعرت بموجة من الكهرباء تجتاح جسدي وترجف عظامي، فصرت أهتز ومن الداخل أحتقن

لحد الانفجار، وشعرت بأن درجات الحرارة في كبدي توازي حِمَمِ بركان يقذف جام غضبه كسيلان زاحف وسوف يجرف معه كل الجهل والعمى الذي يغلِّف قلوب أُناسٍ معدوميّ الحس والإحساس، سوف يجرف كل متعالٍ على قيمة الحياة وعُمق المشاعر ورجاحة العقل التي يُفترض أنها تميّزنا كبشر، عن سائر المخلوقات... إلاّ أني ضبطتُ أعصابي وقلتُ لابنتي، وبهدوءٍ مصطنع:

- حسنًا، سأنتظر ما سوف يحدث، وبعدها أقرر ماذا أفعل.

سألتني ابنتي إذا ما كان الصغير تحسنت صحته وكيف أصبح، فأخبرتها بأن وضعه أصبح مستقرًا وأن جراحه تلتئم وأمعاءه أصبحت نظيفة تمامًا، وقد أخرج كل الأجسام الصلبة من جهازه الهضمي، والأرجح أننا قطعنا المرحلة الصعبة فيما يختص بصحته الجسدية، والحمد لله، تبقى الآن الهمّ الآخر وهو يوازي بأهميته اعتلال صحة الصغير وضعف مناعة جسمه، وهو العمل على إخراجه من الصدمة التي مرّ بها جراء تركه وحيدًا في الشارع وحالة الرعب التي مرّ بها، والخوف الذي عانى، منه سبب له الحزن الكآبة، ويجب مراعاة كل الذي حدث معه والأخذ بالاعتبار بأن التجربة التي اختبرها هذا الصغير وهو في هذا السن المبكرة، كانت صعبة وقاسية جدًا عليه، يا حبيبي المسكين، كم تعذَّب من جراء إهمال هؤلاء الناس وسوء

تفكيرهم وإستلشائهم بهذه الروح البريئة.

سألتني ابنتي سؤالاً نزل نزول الصاعقة عليّ، إذ أني ما كنت بعد قد فكرت به أو حسبت له أيّ حساب أو خطر على بالي، فقد كان كل تركيزي كان مُنصبًّا على مداواة الصغير والاعتناء به وشفائه، ولم ألتفت إلى المرحلة اللاحقة:

– ماذا ستفعلين يا أمي بعد أن تكوني طبَّبْتِ جراحه وشفيتِه من صدمته، وبعد أن تكوني تعلقت به وبوجوده... فماذا ستفعلين، هل ستعرضينه للتبني، أو تعطينه لأحد كي يهتم به ويربيه؟

نظرتُ إليها وبكل استسلام قلت:

– لقد تعلقتُ به وانتهى الأمر، فمنذ المرة الأولى التي رأيته فيها يلعب وفكرت يومها أن الجيران أحضروا قطة صغيرة، وقلت في نفسي كم هي جميلة هذه القطة، وهذا القلب الذي يتوسط جزعها وكأنه مطبوعًا طبع، سبحان الخالق.لذا فإنني أستبعد أن أحبه أكثر أو أتعلق به أكثر، فسبق وفعلت، فلتباركني السماء.

اغرورقت عيوني بالدموع ولاحظتْ ابنتي هذا فسارعت إلى تغيير الموضوع:

– أُمي، إن هذا القط الصغير جميل جدًا.

– نعم هو كذلك، وسوف يزداد جماله رونقًا يومًا بعد يوم وهو في طريقه نحو الشفاء التام وطور النمو.

قالت:

– إن هذا القلب على جنبه يزداد وضوحًا، وكم هو جميل وغريب.

– أجل، ولأجل هذا، سيكون اسمه (Love corazo›n) ومعناه بالمكسيكي «حُبُّ قلب».

ومن وقتها أصبحنا نناديه باسمه، الذي يليق به تمامًا.

ذهبتُ للنوم في تلك الليلة وأنا أفكر بتلك الفتاة وبمعنى تلك النظرة الغريبة، إن الطريقة التي رمقتْني بها، لم أفهمها. كان في عيونها اتهام لي وكأنها تقول: «أعلم بأنك أخذتِ القط الصغير وأعلم بأنه عندك في منزل» ورأيت أيضًا في عيونها نظرة حزن وشيئًا آخر لم أعرف ما هو. شعرت بالأسف نحوى تلك الفتاة، صدقًا، فقد بدا لي بأنها حزينة لفراق (حُب) إلاّ أني لم أتمكن من التفكير بأن الصغير قطها أو أنه ينتمي إلى عائلتها أو أنه فرد من أفرادها أو حتى يخصها، فإنها لو كانت تحبه فعلاً، لما كانت طردته خارجًا وما كانت لتسمح بأن يتألم هذا الصغير ويتعذب وحيدًا في العراء وهو صغير وضعيف ولا حول ولا قوة لديه للدفاع عن نفسه، لو كانت تريده، لما تركته... هذا هو الكلام الصحيح وهذا هو تفكيري عما فعلتْه هذه المراهقة الحمقاء، لا، لن أتعاطف معها، ولن أُبرِّر لها تصرفها، ولا ولن وأبدًا لن أسامح أو أتهاون مع أي أحد يتسبب بالإساءة لهذه

المخلوقات الصغيرة، لن أتوانى عن مهاجمة كل من يحاول أذية هذه الأرواح البريئة، وسوف أكون بالمرصاد لهم.

يا رب إحمي صغاري وامنحني القدرة دائمًا على الاعتناء بهم وتطبيبهم إن لزم الأمر، وامنحني القدرة على الوقوف دائمًا قُرب تلك المخلوقات الجميلة البريئة، والمدافعة عنها أينما وُجِدت.

••••

أحاول التواصل مع عدة جمعيات للعناية بالحيوانات كلما وجدتُ قطة مصابة أو كلبًا داشرًا في الطريق، ولا أحد يجيب، وإن أجاب أحدهم فلا يستجيب. فما العمل حين تصل لطريق مسدود؟! تحجَّرت قلوب الناس، أرواحهم متيبسة، وضمائرهم غائبة، وعيونهم منطفئة، والقسوة تملأ عالمهم.

هنالك كلب من نوع (هاسكي) يحتجزه أصحابه في قفص حديدي صغير جدًا بالنسبة لضخامة الكلب وحجمه، وعلى الأرجح بأنهم قد نسوا وجوده، وها هو لازال على حاله وفي مكانه منذ العام الماضي وقد مضى الشتاء ومرّ الصيف وسيبدأ الشتاء من جديد، والمسكين لازال يقبع مقيدًا داخل ذاك الصندوق، ولا ماء أمامه ولا طعام، يكاد يموت من الجوع والعطش والإهمال، حتى أنه يقتات من برازه الخاص الوحيد الموجود دائمًا بقُربه.

وعندما علمتُ بأمره، بعد أن أخبرتني ابنتي عنه وعن مكانه ووضعه الصعب؛ صِرتُ أذهب إليه وأُطعمه فأُرسِل له الطعام صباحًا مع ابنتي عندما تكون ذاهبة لعملها. وقد حاولنا بالفعل التحدُث مع أصحابه بشأنه، وبضرورة عدم تركه هكذا، إلاّ أنهم صدَّوا محاولاتنا بطريقة وقحة حتى أنهم أقفلوا الباب بوجهنا بقلة تهذيب، فما كان أمامنا سوى اللجوء إلى أية جمعية تعنى بالرفق بالحيوانات.

قمنا بأخذ الصور للكلب والقفص الموضوع بداخله ومحيطه، كما قمنا بتسجيل مقاطع فيديو، وأرسلناها إلى منظمة تعنى بالرفق بالحيوان... لكن من دون أيّ جدوى.

عرضتُ على أصحابه عرضه للتبني أو أخذه والاعتناء به، لكنهم أيضًا رفضوا. لا أفهم سبب تمسكهم به وإصرارهم على معاملته بهذه الطريقة الهمجية التي لا تمتُّ للإنسانية بأي شكل من الأشكال وبأي صلة - للأسف الشديد - بالرغم من أن لديهم كلب آخر صغير، يحتفظون به معهم داخل البيت ويُخرجونه للنزهة يوميًا، ويمرون معه بالقُرب من قفص ذاك التعيس ولا يخصونه ولا بإلتفاتة حتى.

كان وضع الكلب مُوجعًا ومبكيًا شأنه شأن كثيرين مثله، مهمَلين معَنفين معَذبين، متروكين لمصيرٍ مجهول محتّم وقد حُكم عليهم طوال عمرهم.

الويل لكم من غضب الله، الويل لكم من انتقام الزمان،

فالحياة لن ترحمكم وسوف تذوقون العذاب والوجع وتأكلون الهمَّ في أطباقكم، وسوف تعانون كما عانى بسببكم أولئك المساكين، وسوف تتعذبون لمشاهدة أولادكم يتألمون ولن تكونوا قادرين على فعل أي شيء، وسوف تقتلكم الحسرة لرؤية فلذات أكبادكم يُظلمون، من دون القدرة على مواساتهم حتى، وسوف يعانون من الفقر والمرض ولن تتمكنوا من مساعدتهم وستقفون مكتوفيّ الأيدي، متفرجّين، وسوف تجوعون وينهككم العوز، وسوف ينهش التعب أجسادكم وتنهك الوحدة عظامكم، ويهّد العمر صحتكم وأعماركم، وسوف تُعامَلون كما عاملتم، وتُحاكَمون كما حاكمتم، ولن تُرحموا كما أنكم ما رحمتم، فإن القدر حكمه صعب على أمثالكم، وعدل السماء لا بد آتٍ... فلتنتقم منكم السماء.

••••

ذهبتُ بالأمس إلى عيادة الطبيب البيطري من أجل شراء بعض الحاجيات لصغاري، وكذلك للتحدث معه بخصوص (حُب)، وإخباره عن كل المستجدات فيما يخص صحة الصغير وتأقلمه مع محيطه الجديد. وكان هنالك ذاك القفص الكبير، الذي غالبًا ما يكون بداخله قطةٍ ما تنتظر عودة مالكيها أو كلب ينتظر دوره للاستحمام، أما اليوم،

فقد كان القفص يضم ثلاث قطط صغيرة جدًا، فسألته عن قصة هذه الهررة؟ فأجابني الطبيب مشيرًا إلى القطة الأصغر بينها:

– هذه المسكينة ظلت لثلاثة أيام محتجزة داخل مولِّدٍ للكهرباء وقد أحضرناها بالأمس، أما الاثنتان الأُخريان فقد وجدناهما في الشارع مع أمهما، فأجريت عملية التعقيم للأم وأعدتها، بينما أبقيت على أولادها، وإنهما والقطة الأخرى معروضة للتبني...

– يا للمساكين.

شعرتُ بغصة داخل حلقي، وحرقة في صدري. فقد كانت القطتان تلعبان وتقفزان وتحاولان الوصول إليّ عندما فتحتُ باب القفص لمداعبتهما، كانا ذكرًا وأنثى، وقد بدت عليهما السعادة. حملت كل واحدة منهما وقبَّلتها وأطعمتها من المكافآت الخاصة بالقطط، والتي تحتوي على الفيتامينات والمعادن، فإنها مفيدة جدًا ومغذية وتحبها كل القطط، ودائمًا ما أحملها معي في حقيبتي بُعَيْدَ خروجي من البيت. أما القطة الأصغر، فقد كانت منكفئة على ذاتها في الزاوية الأقصى للقفص، ترتجف وعيونها دامعة جاحظة حمراء، تنتئ خارج وجهها لكثرة الضعف الذي بدا واضحًا عليها، ونظرها لا يرتكز على أي شيء محدد، فقط تنظر للبعيد، بعيد عن أي شيء وأي أحد.

ركعتُ على ركبتيّ وأدخلتُ رأسي في باب القفص، أبغي لمس ذاك الجسد الضئيل المرتجف الساكن وكأنه تمثال جصّ أو كومة قشّ، وُضِعَتْ هناك، هناك في ركن القفص. فقالت لي والدة الطبيب:

– انتبهي، فإن هذه القطة تقوم بمهاجمة كل من يقترب منها، وتخدش وتعض.

– لا بأس، هذا لأنها خائفة كثيرًا وتحاول حماية نفسها بهذه الطريقة.

ثم طلبت من الطبيب أن ألتقط للقطط صورة من هاتفي لكي أنشرها على صفحتي الشخصية من أجل المساعدة بإيجاد أيّ متبنّي.

أخذتُ حاجياتي وعدتُ إلى البيت وأنا أكاد أبكي من كثرة الحزن. لم أنم تلك الليلة، وكم هي طويلة الليالي التي لا أنام فيها، وكم هي كثيرة، وكم تمر ساعاتها ببطء وكم تعذبني أفكاري التي تدور خلالها، وتوجعني ثوانيها التي لا ترحم مهجتي وتفتك بصبري وتؤرق مضجعي وتمزق من إدراكي، المنطق، فلسانُ الحالِ ينطق، بصورة القطة الصغيرة التي لم تفارق مخيلتي لحظة واحدة.

اليوم التالي لزيارتي لعيادة الطبيب، مرَّ علي وكأنه عام فقد ظللت طوال اليوم حزينة، متعبة وواجمة طوال الوقت، ومضى النهار وأنا أشعر بالتعب الشديد. أردت

النوم باكرًا إذ أني في اليوم التالي سيتحتم عليّ الاستيقاظ أبكر من المعتاد حيث أذهب إلى الساحل من أجل قضاء بعض الحاجات. وهذا ما حصل، فقد بدأ نهاري كما خططتُ له بالظبط، إلاّ أنه لم ينتهي هكذا.

انهمكتُ طوال فترة الصباح ولغاية الواحدة بعد الظهر تقريبًا في أموري التي نزلتُ إلى الساحل من أجلها، وقد كنت أتنقل من منطقة إلى منطقة لإنجاز بعض المعاملات، وكلما مررتُ بشارع؛ أرى القطط، وكلما دخلت في حيّ أرى القطط وكلما دنوتُ من متجر أرى القطط والكثير من القطط، القطط الجائعة والقطط المتسخة والقطط المصابة بجروح، بعضها جروح طفيفة وسطحية وبعضها جروح بالغة وخطيرة... قطط صغيرة، قطط كبيرة، هررة لا تتعدى أعمارها الأسابيع المعدودة، متروكة مهشمة بائسة على نواصي الطرقات، منظر يجعل الصخر يلين أمام فظاعته، والتماسيح تذرف الدموع لكثرة قساواته، إلاّ بني آدم، فلم ترُف له أجفانه.

كانت تلك الهرة الصغيرة في عيادة الطبيب، تحضر في خاطري كلما شاهدتُ هرة تتسكع في الشارع أو على الرصيف أو أمام باب أحد المطاعم، ومن دون أن أعي وجدتني أطلب رقم الطبيب وأطلب منه تجهيز الهرة الصغيرة، لأنني سوف أمرُّ لأخذها.

وصلتُ إلى العيادة، كانت لازالت مغلقة، إذ أنها تغلق

أبوابها كل يوم في تمام الساعة الواحدة لغاية الثالثة بعد الظهر. وأنا تأخرت عن الواحدة ووصلت قبل الثالثة، فجلست أمام الباب أنتظر.

وصل الطبيب، تحدثت معه ومع والدته قليلاً وحملت العلبة الصغيرة التي تحتوي على روح غضّة بالكاد تبلغ الشهر من العمر، وعدُت سريعًا إلى البيت.

وضعتُ الزائرة الجديدة في غرفتي وقد استقرت فيها، وأصبح بابها مغلقًا بوجه قططي الكبيرة، حاله حال باب غرفة ابني حيث احتلها (حُب) إلاّ أنني بدأت أسمح له بالخروج قليلاً وتمضية بعض الوقت في جميع أرجاء البيت؛ باستثناء غرفتي طبعًا، حيث أن تلك الوافدة الجديدة عندها وضع خاص جدًا ولا يمكنني أن أخاطر بتعريضها لأية مجازفة حاليًا، فحياتها مهددة لأنها فقدت أمها باكرًا جدًا ولم يكتمل بعد نموْ جسدها وأعضاؤها الداخلية، إذ أن غياب أمها الغير معروف سببه، ووجودها داخل موّلد للكهرباء وبقاءها عدة أيام متتالية من دون علم أحد وبقاءها بعدها لعدة أيام أخرى منزوية في ركن ذاك القفص، مصابة بحالة شديدة من الهلع (تروما) ولا تتقبل اقتراب أي أحد منها، حتى أنها رفضت تناول أي طعام. وقد قال لي الطبيب هذا الكلام وكان واضحًا جدًا بكلامه بأن القطة قد لا تتمكن من النجاة:

- إن جسدها غير مكتمل بعد، وعلى الأرجح لن تنجو.

يوم أحضرتُها إلى البيت، لم أخرجها من العلبة فورًا، بل وضعتُها في غرفتي وأقفلتُ الباب وتوجهت سريعًا للاطمئنان على (حُب) وباقي القطط إذ أنهم بقوا حوالي الساعتين وحدهم بعد ذهاب الأولاد إلى أعمالهم، لهذا كان بالي مشغولاً جدًا عليهم، وبعد تأكدي بأن كل شيء على ما يرام عُدتُ إلى غرفتي لأجد العلبة مفتوحة وفارغة، وقد اختفت القطة!

بدأتُ بالبحث في كل أرجاء الغرفة، وكأنها تبخرّت، فبدَّلتُ ملابسي وعاودتُ البحث، إلى أن وجدتها مختبئة قُرب خزانة الملابس، مع العلم أن المكان حيث أدخلتْ نفسها بين الخزانة والحائط ضيق جدًا.

حاولتُ استدراجها للخروج، إلاّ أنها تراجعت والتصقت بالحائط أكثر وأكثر، وكانت ترتجف بقوة، فما كان من مجالٍ أمامي سوى سحبها بالقوة ورغمًا عنها. أردت ضمها إلى قلبي لكي تشعر بالأمان والطمأنينة بين ذراعيّ إلاّ أنها كانت لاتزال مرعوبة فقد ظلت ترتجف طوال المسافة التي تفصل عيادة الطبيب عن بيتي. فبعد أن أخذتها وخرجت من العيادة، كان لا بدّ لي من السير على الأقدام لحوالي ٥٠٠ متر حتى أصل إلى الطريق العام لكي استقل سيارة أجرة، إذ إني لا أمتلك سيارة، واقتربتْ سيارة وتوقف سائقها وصعدت ووضعت العلبة في حضني، وكانت القطة تموء بصوت مبحوح وكأنه أيّ صوت إلاّ مواء قطة.

سألني السائق:

– ماذا يوجد في العلبة، أتحملين قطة؟

أومأتُ بالإيجاب.

وبلحظة واحدة لم أعرف ما حدث، جُنَّ السائق وبدأ برشقي بكلمات فظة:

– الناس يموتون من الجوع، وأنتِ تحضرين قطة؟

– هذه القطة كانت ستموت لو لم أحضرها.

– البشر يعانون في ظلِّ هذه الأوضاع الصعبة، ويتعذبون في سبيل إطعام أولادهم، وأنتِ تربين قطة؟

– هذه القطة أيضًا تعاني وتتعذب، فقد قتل البشر أمها.

– الأطفال يُطردون من مدارسهم، لأن أهاليهم لم يدفعوا الأقساط، وأنتِ تهتمين بقطة؟

– أولئك الأولاد الذين تتحدث عنهم، يرشقون هذه القطط بالحجارة ويطاردونها بالعصيّ ويضربونها ويقتلونها فأين هي الطفولة التي تتحدث عنها؟!

صار يضحك بطريقة مستفزة مقرفة، وراح يطلق السباب والشتائم على هذه الأيام العاطلة التي وصلنا إليها.

كان رجلاً كبير السنّ يبلغ السبعين من العمر ويشقى من أجل تأمين حياة كريمة لأبنائه، «وأنتِ تدافعين عن قطة؟» – على حد قوله –.

وقتها ما عدتُ أستطيع السكوت أكثر:

- أنت وأولادك وأمثالكم تسلبون حياة هذه القطط وتزهقون الروح من أجسادها بكل برودة أعصاب، حتمًا لن تنالوا الشفقة من أحد ولا حتى من الحياة نفسها، فأرواحكم تائهة وعيونكم منطفئة ونفوسكم سوداء وعقولكم مرهونة وضمائركم غائبة ومأجورة في سبيل المال والمادة بعيدًا عن المعنى الحقيقي للحياة، فلا قيمة عندكم لأيّ شيء له جوهر الوجود، تحيون في المظاهر الخدّاعة وتعيشون في الوهم الغشاش فقط، لأنه يناسبكم ويريحكم، فحياتكم عبارة عن قذارة ورؤوسكم في الوحل وتختبؤون من وجه القدر، غير أن قدر أمثالكم محتوم، فها انت رجلٌ كهلٌ كما تقول، قد لا يكون لك يدٌ في تقدّم العمر؛ إنما يمكنك أن تقرر كيف تقضي هذا العمر، فرجلٌ بمثل عمرك ووضعك، كان من المفروض أن تكون قُدوة لأولادك ولمن سيأتي بعدك، غير أنك معدوم الحسّ والإحساس، فأيَّة قدوة أنت؟ وما هو نوع من سيأتي بعدك، إن أبناءك سيربون أبناءهم كما ربيتهم أنت، بمعزل عن الأحاسيس الإنسانية، بمنأى عن أية مسؤولية تجاه هذه المخلوقات الضعيفة المنسية فعن أيّ براءة تتحدث؟ أنت وأبناؤك ومن هم على شاكلتكَ، تتحدثون باللامنطق وتتكلمون بالزيف واللامصداقية وتتصرفون بالتعالي الباطل وبسُلطة ليست مشروعة وليست من حقكم وتتحكمون بمصائر هذه الكائنات

وتستصغرون مخلوقات الله وتحاولون رفع أنفسكم على حساب هؤلاء المساكين، ورغم دناءة أفكاركم ورغم حقارة تصرفاتكم وعدم تقديركم لنعمة الحياة التي أُعطيَت لكم ففي النهاية أنتم مجرد بشر إنما تمتلكون القدرة على الكلام، تمتلكون الصوت، بينما هذه المخلوقات الصغيرة، تجوع وتتألم وتمرض وتموت، في صمت.

أنهيتُ كلامي ونظرت في وجهه، وإذا به يفتح فاهه مصعوقًا وقد اتسعت حدقتاه بنظرة مصدومة وكأنه تلقى صفعة قوية.

شعرتُ بالأسف نحوه وبالاشمئزاز في ذات الوقت، فتابعتُ قائلة:

- حرامٌ، أمضيتَ حياتك تسعى وراء المال لإراحة ضميرك ولكي تستُر تقصيرك وتقاعسك وتخاذلك، فها عمرك انقضى وقد خُتمتْ أيامك بالشمع الأحمر والسنوات تمر بك سريعة سريعة والشباب من عمرك صفحة وانطوت، فبماذا سينفعك مالُكَ الآن؟ وماذا جنيتَ من أحقادك على الزمان ومن تَحميلِهِ سبب فشلك؟ إن الإنسان الحقيقي يعيش بسلام مع ذاته ويبادر بالمحبة ويتعامل بالودّ ويفكر برجاحة عقل وبنقاوة روح مؤتمنٌ على نصاعة بياضها ورونقها بالمحبة، عامِل بالمحبة تُعامَل، وإن عطفتَ على جميع مخلوقات الله فسوف يعطف عليك إله السموات، وإن رَحَمْتَ فسيرحمك الله، الله محبة.

دفعتُ له أُجرته وصعدتُ إلى بيتي. وضعتُ للقطة الطعام الذي اشتريته خصيصًا لها، إلاّ أنها لم تحاول الاقتراب منه أو تذوقه... يا إلهي كم هي صغيرة، حتى أني حملتُها بيدٍ واحدة، فهي أصغر من كفِّ يدي!

مضتْ فترة بعد الظهر وحلَّ المساء وأنا أحاول جعلها تأكل قليلاً، ولم أُفلح، فحملتُها وخرجتُ إلى شرفة المطبخ حيث جلستُ. وضعتُ الصغيرة بين يديّ وقرَّبتُها من قلبي ولففتها بوشاحي، فما لبثتْ أن هدأت وغفت.

بقيتُ على هذه الحالة قرابة الساعة والنصف، لا أجرؤ على الحراك خوفًا من إيقاظ القطة. وقد دُقّ الباب عدة مرات ولم أجاوب، وبعد أن فقدتْ الأمل؛ فتحت ابنتي الباب بمفتاحها ودخلت هي وأختها، وراحتا تبحثان عني في غرف البيت، إلى أن وصلتا إلى الشرفة حيث أجلس.

كانت ابنتي تحدِّثني وأكتفي بإيماءة من رأسي دون كلام، فسألتني:

– أُمي، ما بكِ؟

صارتا تتحدثان معي، وأنا أكتفي بهز رأسي أو كتفيّ، عندئذٍ تنبهت ابنتي إلى أنني أُخفي شيئًا، فأزاحت الغطاء على مهلٍ وصُدمِتْ...

– أمي ما هذا؟ إني لا أرى جيدًا.

ثم طلبتْ من شقيقتها إحضار ضوء، وصرختا معًا بشيء

من الذهول:

- قطة صغيرة؟

عندئذٍ تململتْ الصغيرة وفتحت عينيها تنظر إلى الفتاتين بخوف، فطلبتُ منهما إخفاض صوتهما والابتعاد قليلاً ريثما أضع القطة في غرفتي.

حملتُها ووضعتُها على بطانية قُرب السرير، إذ أن سريري عالٍ بعض الشيء وأخاف أن تقع. قرَّبت وعاء الطعام والماء منها، وخرجت.

عدتُ إلى الشرفة وأشعلتُ سيجارة، وباشرت ابنتيّ بسؤالي عن القطة:

- أُمي من أين أحضرت هذه القطة إنها صغيرة جدًا، ما بها؟ أين أُمها؟ كيف عثرتِ عليها؟

- إنها يتيمة.

أخبرتهما القصة، وبأنني أحضرتها من عيادة الطبيب، وأخبرتهما بكل ما قاله لي الطبيب؛ إلاّ القسم المتعلق باحتمالية عدم اكتمال النمو الطبيعي للصغيرة، تركتُ هذا الخبر لنفسي.

- هل هي قطة ذكر أم أنثى؟

- لا أعلم بعد، فالقطة صغيرة جدًا، بالكاد أكملتْ شهرها الأول على ما أعتقد، ولم أستطيع تمييز جنسها بعد.

أنهيتُ أعمالي المسائية سريعًا، بما في ذلك إطعام أولادي جميعًا (بناتي وقططي) ووضعتُ الطعام لـ(جولييت) وابنيها، ثم هرعتُ إلى غرفتي لأجد القطة قد أكلت وشربت بالفعل، والحمد لله، وكم أسعدني هذا رغم أنها وما إن دخلتُ إلى الغرفة حتى هربتْ واختبأتْ خلف السرير... لا بأس، يلزمها بعض الوقت للوثوق بي وللشعور بالانتماء إلى غرفتي ومحيطها الجديد. طالما أنها تناولت بعض الطعام وشربت القليل من الماء، فهذا دليل على بداية جيدة حتمًا.

اضطررتُ تلك الليلة لترك (حُب) ينام وحده، إذ يجب أن أبقى قُرب القطة الصغيرة، فهي بحاجة لي ولوجودي قرُبها أكثر من حاجة (حُب) إليّ في هذا الوقت الحساس بالنسبة إلى وضع الصغيرة، مع أنها لم تنم ولا لحظة واحدة تلك الليلة، ولا الليالي التالية، وقد ظللتُ قُربها أحاول التقرب منها وطمأنتها، إلى أن بدأت تعتاد وجودي وأصبحت تركض نحوي عندما أدخل الغرفة، بعد أن كانت تسرع هاربة لدى رؤيتي.

••••

اليوم، وبعد مرور حوالي ثلاثة أشهر على وجود (حُب) في بيتي، وحوالي شهرين ونصف تقريبًا على وجود القطة الصغيرة – الذي ظهر لاحقًا وبعد عدة أسابيع بأنه (ذكر) – ويا لفرحتي العظيمة، يا للغبطة التي أحسستُ بها لدى تأكدي بأن القطة الصغيرة هي قط ذكر ووسيم جدًا، ونوعٌ جميلٌ جدًا من القطط، ونادر الوجود أيضًا كما (حُب)، ويُطلَق عليه اسم (توكسيدو) لقب (الرجل الأنيق)... فكم أنا محظوظة ومباركة.

أذكر، يوم ذهبتُ لإحضار القط الصغير من عيادة الطبيب وأخبرني بوضعه الصحي، كم حزِنتُ يومها وشعرتُ بالخوف عليه. وعندما كنت أنتقي الطعام له، وكانت والدة الطبيب تقوم بمساعدتي، فهي امرأة نشيطة ومحبة، قلبها عطوف وتهتم بكل الحالات التي تأتي إلى العيادة وتعامل كل الحيوانات برفق ورقة، وقد نصحتني بعدم شراء كمية كبيرة من الأكل الخاص بالقطط حديثي الولادة كي لا يذهب الطعام هباءً – كما قالت يومها – فهي تعلم بأن قططي كبيرة وبأن (حُب) أصبح أكبر من أن يتناول طعام الهررة... فأجبتُها:

– لا، لن يذهب الطعام هباءً بإذن الله، وسوف تستمتع به ابنتي الجديدة، وهذا سيكون التحدي الجديد في حياتي.

فتبسمتْ لي، وقالت:

– الله يعطيكي العافية.

الآن أشكر ربي في كل دقيقة على نجاة ابني الصغير، فقد بدأ ينمو بشكل طبيعي، حتى أنه يمكن القول بأنه يتمتع بصحة جيدة جدًا، وإنه قوي وسليم البنية، وقد أصبح ممتلئ الجسم ونشيطًا لا يهدأ، يحب اللعب كثيرًا والقفز على السرير وتسلق البرادي وكل شيء عال ِ،ويأكل جيدًا من الأكل الجاف الخاص بعُمره، ويحب الحليب المخصص للهررة الصغيرة التي فقدت أمها، والذي أشتريه له من عيادة الطبيب، وكنتُ في بادئ الأمر أعطيه له في(الرضاعة) إذ كان لا يزال صغير جدًا، أصبح يشربه وحده الآن، ويحب بالأخص طبخي والوجبات التي أعدها له ولإخوته، حتى أنه يطالبني بها إن مرَّت عدة أيام ولم أقدِّم له بعضًا منها. فقط يعاني قليلاً من التسنين، إذ أن أسنان الحليب بدأت بالظهور، ويقوم طوال الوقت بعض أصابعي وعض كل ما يمر أمامه.

يومُ أحضرتُه، صادف أنه يوم عيد ميلادي، وقد فكَّرتُ بأنني هذا العام قد أحضرتُ هدية لنفسي، وصدقًا لم أنتبه لهذا الموضوع سوى لاحقًا تلك الليلة، تحديدًا عندما استلقيتُ في سريري متعبة بعد عناء ذاك اليوم الطويل، وقد اشتقتُ للنوم في سريري، ومع أنني لم أنم ولا لحظة تلك الليلة، وبقيت طوال الوقت أراقب الصغير خوفًا من أن يؤذي نفسه بأي شيء، فإنني لم أهيئ غرفتي بعد لاستقبال قطة بمثل هذا السن وهذا الحجم، إلاّ أنه الآن هنا، وأول ما

فعلتُه في اليوم التالي، هو تجهيز الغرفة بشكل يُلائم صِغر حجمه، وقد أبعدتُ كل الأشياء الصلبة حتى لا يجرح نفسه بها، وكل الأشياء الصغيرة خوفًا من أن يبتلعها... يا الله كم أعشق هذا الصغير، فبفضل ربي ها أنا اليوم قد ربحتُ فيه ذاك التحدي.

كان (حُب) يحزن لتركه ينام وحده، ويُعبِّر عن حزنه بتخريب الغرفة عندما أتركه، أو يغضب مني، فيبتعد عني عندما أذهب إليه ويعاندني في بادئ الأمر، ليعود بعدها ويرتمي بين أحضاني ويتدلل علي، وأنا بدوري أنهال عليه بالقُبل ولا أشبع من تقبيله واحتضانه كطفلٍ صغير بين ذراعيّ.

منذ دخول هذا الصغير إلى حياتي؛ غيّر عالمي كليًا، وزاد قيمةً ومعنى لوجودي بهذه الحياة، وبوجوده وإخوانه؛ أنعم الله عليّ.

رغم أن الاهتمام بستِّ قطط مُكلِّف جدًا بالأخص أنني لا أبخل عليهم بأي شيء وأحضر لهم الطعام الخاص بعُمر كل واحدٍ منهم وبوضعه الصحي وإنني أعدُّ لهم الأكلات المغذية والمفيدة، من طبخ مكوَّن فقط من المواد التي يمكنهم تناولها ولا تضر بصحتهم، وأحرصُ دائمًا على عدم السماح لأي أحد غيري بإطعامهم فإنني لا أخاطر بصحة صغاري إذ إنه هناك الكثير من الأطعمة لا يجب

إطعامها للقطط، لهذا فأنا دائمًا أُشدِّد على كل من يُربِّي القطط بالانتباه جيدًا لهذا الأمر، فالقطط لا يمكنها تناول كل الأطعمة التي نأكلها نحن، وهناك بعض المكونات قد تتسبب بمرضها وحتى بموتها، لا سمح الله.

(حُب) أصبح قويًّا بما فيه الكفاية، وقد ازداد حجمه ووزنه، واعتاد البيت وغُرفه وأصبح يثق بي ثقة تامة، فهو سعيد بالحياة معي ومرتاح ومطمئن بأن لا خطر عليه هنا، وأنه لن يجوع أو يعطش، ولن يتعرض لأي أذى، وأنه بمأمن من الشارع ومخاطره، وأصبح ينام قرير العين ومسترخيًا، إلاّ أنه لا يأكل عندما أتركه وحده بالغرفة، ويريدني أن أبقى معه دائمًا، وأن أقف قُربه حتى يتناول طعامه... إنه مُشاكس صغير.

••••

أعتقد بأن الوقت قد حان لجعل القطط تتعرف ببعضها البعض عن قُرب من أجل أن تعتاد على التواجد في ذات المكان والمشاركة في الحياة اليومية، مع إنني أشعر ببعض القلق من ألا تتقبل قططي الكبيرة وجود قِط غريب، إلاّ انه يجب دمج القطط مع بعضها، فلم أعد أستطيع احتجاز (حُب) في غرفة مقفلة، أو منع بقية القطط من الدخول إلى تلك الغرفة.

وتنفيذًا لهذه الأفكار؛ استيقظتُ اليوم وشربتُ قهوتي وفتحت باب الغرفة وتركت القطط للتواجه فيما بينها، لكي أرى ردة فعل كل واحد منهم على حدة، مع العلم بأن القطط ليست غريبة كُليًا عن بعضها، فإنني ولمدة شهرين تقريبًا أُحضِّر لهذا اللقاء.

وكما كان متوقعًا، دخلتْ قطتي الأُم أولاً وبدأتْ باستكشاف كل ركن من أركان الغرفة واشتمام كل شبر وكل شيء موجود، ومثلها فعل الباقون.

توتَّر (حُب) وبادر بمهاجمة الجميع، فبدأتُ أُحدِّثُه بلُطف وبصوت خافت، وأحاول طمأنته، وفي الوقت عينه أُحدِّث القطط الكبيرة لكي يحافظوا على هدوئهم خوفًا من حدوث أيّ تعارك أو هجوم من أحد الطرفين.

مَرَّ اللقاء الأول بسلام، دون أيّ احتكاك بين القطط، إلاّ أن التوتر كان سيد الموقف.

تركتُ (حُب) يتجوَّل في البيت على سجيته، إنما أذهب معه أينما ذهب، وألحق ببقية القطط إن لحق به أحدهم، كان خوفي من تعارك صغاري أو مهاجمة بعضهم، وإلحاق الأذى بأي أحد من بينهم يوترني ويضغط على أعصابي كثيرًا، خاصةً وأن التعب أصبح واضحًا على الجميع

أرجعتُ (حُب) إلى غرفته، ومكثتُ معه قليلاً لحين انتهائه من تناول طعامه، ثم خرجتُ لتمضية بعض الوقت

مع قطتي الأم وأبنائه،ا لأذهب بعدها إلى غرفتي للاطمئنان على الصغير وإطعامه.

وهكذا تمُرُّ أيامي هذه الفترة، أتنقل بين غُرف البيت من غُرفة إلى غرفة، أهتمُّ بكل واحد، وبالجميع، أتواجد مع كل واحد ومع الجميع، أُحِبُّ كل واحد وأُحِبُّ الجميع، وأعطيهم الحنان وأعاملهم بعطف الأم لجميع أبنائها. ففي النهاية هُم عائلتي، وعالمي يتمحور حول كل واحد منهم... وهُنا تكمُن سعادتي وفرحتي.

في صباح كل يوم؛ أفتح باب الغرفة وأدع القطط تتفاعل مع بعضها البعض؛ مع مراقبتها طوال الوقت إذ أن إحدى قططي الكبيرة لم تقبل بعد بوجود (حُب)، وتقوم بمهاجمته كلما سنحت لها الفرصة. وبدوري أقوم بتفرقتهم وعزل كل واحد في غرفة، لأعود بعد حين إلى إخراجهم، ثم أعود بعد وقت قصير لاحتجازهم من جديد... وعلى هذا المنوال طوال النهار، أظل أركض وراءهم وأمنعهم من أذية بعضهم، على أمل أن يعتادوا المشاركة وتقبل وجود (حُب) وسطهم سريعًا.

لو سُؤلتُ قبل عدة سنوات عن إحضار قطة إلى بيتي والاهتمام بها، لكان جوابي النفي القاطع. فحينها كُنتُ عصبية جدًا ولا جلد لي ولا صبر على تحمل أية مسؤوليات جديدة تضاف على كاهلي، فضغط الحياة،

والهموم الحياتية اليومية، والاهتمام بأولادي الأربعة وتنظيم أمورهم وأمور البيت بما يتضمنه ذلك من مجهود والتزامات؛ وطبعًا من وقت لتنسيق الأولويات والتحضير لأية مستجدات فيما يتعلق بحياتنا، فمسؤولية أربعة أولاد والعناية بهم وتدبير أمورهم وتنظيم حياتهم والاعتناء بصحتهم وأكلهم واستشفائهم وتطبيبهم، والمدارس والجامعات، ومواكبتهم دائمًا، مع الحرص الشديد على راحتهم واستقرارهم، وملازمتهم طوال الوقت لتلبية جميع حاجياتهم، والتواجد دائمًا قربهم لمساندتهم ودعمهم في أية مشكلة قد تصادف أحد هم؛ لهي مسؤولية ضخمة، خاصة أنني أحب التحضير لكل الأشياء مسبقًا، ودومًا أكون على أهُبّة الاستعداد لتقديم أية مساعدة مطلوبة في الوقت المناسب، وفي المكان الصحيح، كما أُفضِّل أن تكون الأشياء دائمًا كاملة قدر المستطاع، فأُكمِلُ ما أبدأه حتى لا أدع أيّ شيء للصُّدف، ولا أترك عملاً بدأتُه قبل التأكد من إنجازه مئة بالمئة، ولا أترك أيّ أمر معلَّق، فأنا أُقدِّر تمامًا المعنى الحقيقي للأشياء، وأعطي لكل صاحب حق، حقه، وأؤمن بأن الإنسان بما يضمُر، وبأن الإناء يفيض بما يَحْتَوي، وقد تعلمت بأن أنظر للأشياء من جميع الجوانب، فإن لكل جانب منظاره المختلف، ولكل جانب مفهوم مختلف، والحياة أعمق بكثير من مجرد كلام جميل يُقال في أوقات الفراغ، من دون قصد أو لمجرد مسايرة أو لمجاراة حديث

دائر في بعض الصالونات، حديث تافه كلام سافر، مجرد كلمات لملأ الفراغ.

وجودي في هذه الحياة الدنيا محسوم، وعمري محسوب، ووقتي بالأرقام معدود، فالإنسان ليس مجرد عدد؛ وإن كان العمر طويل أم قصير، يكفي أني أعرف كيف أسير، وأيّ من الاتجاهات أختار. فالإنسان بالأفعال يُقاس، وعلى أفعاله يُحاسَب. فماذا ينفعني لو ربحتُ معركة وخسرتُ الحرب؟ فكل تجربة تمر بها نفسي هي بمثابة معركة، كل مواجهة مع ذاتي هي حرب؛ حرب دائرة، حرب دائمة، حرب ضارية، ولستُ ممن يرضون بالهزيمة، فأنا دائمة السعي؛ أبديّةُ السعي؛ السعي في سبيل الإنسان في داخلي، السعي لإثبات الذات كوني من بني البشر، كوني إنسانًا حيًّا، أحيا وأعيش وأتنفس على سطح هذا الكوكب، لذا لا أقبل بأقل مما يليق بي لا أقبل.

إن الحياة فانية، والأيام فيها معدودة، ولن يتبقَ مني بعد زمن سوى ما صنعتُه، وهو ما سيتذكره الناس عني بعد أن يكون عمري انقضى.

ليت بمقدوري تسيير الأمور كما أرغب، غير أن الظروف أحيانًا تُعاندني، وأحاول من جديد وأظل أحاول، فلا بد للقدر أن يستجيب، فبالإرادة والتصميم يتحقق المستحيل. لهذا لا أفقد الأمل، لأنني وبالدرجة الأولى أتكل على الله،

وأثق بنفسي وبقدرتي على إثبات ذاتي، وأبذل جهدي للمحافظة على استقلاليتي واستقراري رغم الأوضاع المتقلبة، المتحولة، فإنني دائمًا أكون وبقدر الإمكان على أتمّ الاستعداد لمواجهة أيّ ظرف، مهما كان صعبًا أو قاسيًا، فالحياة تفرض نفسها أحيانًا بطرق ملتوية، وهنا يأتي دوري، إن كنت أستحق فرصة ثانية أم أن الوقت قد نفد مني، فوقتها، بماذا سيفيدني التمنّي؟

صراع داخلي أخوضه بيني وبين نفسي عن جوهر الحياة؛ عن معناها؛ عن قيمتها. نزاع طويل وبحث حثيث ودائم عن سبب وجودي بين أناس لا أفهمهم، ولا أنتمي إليهم، ولا أُشبههم حتى.

ما بداخلي يوازي عندي الحياة؛ كل الحياة؛ بحلوها ومُرها، بسهولتها وقساوتها. فأنا أعيش الحياة لمنتهاها، بعمقها أغوص لحد التفاني، وفناء الذات في سبيل الوصول إلى المعرفة معرفة النفس البشرية وما تحويه.

الحياة بسيطة، نظيفة، جميلة، فلماذا يقوم بعض البشر بتعقيدها وتشويه أجمل ما فيها؟

تساؤلات كثيرة... واحتمالات الحصول على أجوبة، ضئيلة جدًا، فلو أن الأمر معلَّقًا بي وحدي لكانت الأمور أكثر وضوحًا وأقل تعقيدًا، فلطالما تمنيتُ الابتعاد عن كل البشر والعيش في مكان بعيد مُنعَزِل، وخوض تجاربي الخاصة

دون تأثير من أحد، أو الحساب لأحد، أو الحاجة لوجود أحد. أنا فقط، لأنني فقط من أفهمني، وأنا الوحيدة التي أشاركني الوجع والألم والعذاب، والوحيدة التي أُنصفني، والتي أسمعني، فغالبًا ما يكون الكلام صعبًا، والتعبير أصعب، وبمرحلة ما، لا يعود ينفع.

أنا لستُ من نوع النساء اللواتي يُهملنَّ بيوتهن وأولادهن من أجل صبحيةٍ ما، أو إضاعة الوقت بأمور قد تكون تهمُّ معظم الناس، إنما لا تهمني أنا شخصيًا. ولستُ ممن يحبون الخروج والتسكع مع الأصدقاء، بل أُفضِّل المكوث في البيت وعدم الخروج منه إلاّ عند الضرورة، ولا أهتم بأية أحداث خارج إطار بيتي وعائلتي، فلا جَلَد لدي لتحمُل بعض الناس ممن لديهم استعداد لتناقل الأقاويل والثرثرة الفارغة، وأُفضِّل وحدتي والاهتمام بأموري الشخصية فقط، فلا يعنيني ما يجري خارج بيتي، ولا يهمني ما يدور في أروقة خيالات الناس ونفوسهم، وما همَّني يومًا آراءهم أو معتقداتهم، فإن ما لي، لي، وما لهم، يليق بهم. لهذا أُقدِّس مساحتي الخاصة، ولا أدع مجالاً مُتاحًا أمام أي أحد لتخطي حدوده، فأنا صادقة مع نفسي ومتصالحة مع ذاتي، أعرف ما أريد وأسعى للحصول عليه، أعيش في سلامٍ داخليّ واكتفاءٍ ذاتيٍ، أؤمن بقوتي في الحياة، وأن القوة موجودة في داخلي، وأن السعادة لا يمكن لأحد إعطائي إياها، فهي موجودة في أعماقي، وحُبُّ العطاء ليس أمرًا تتعلمه في

المدرسة أو تقرأه في كتاب، بل هو متأصِّل في وجداني.

المحبة ليست مُكتَسَبة، وليست بحسب المواقف أو الظروف، المحبة روح، نبض، المحبة قائمة بحد ذاتها، إنها حُبُّ المعرفة وقبول الآخر. إنما للأسف، فبعض البشر، أرواحهم مدفونة تحت أطنان من الأحقاد والأنانية والجهل، والنبض بداخلهم مُمَوَّه متخفّي خلف ذريعة ما يُسَمّونه (الإنسانية)، وهو نبض مشروط حسب الظروف والمصالح الشخصية والمطامع الفردية، وليس نبضًا بالمطلق، بل إنه يُجسِّد الجشع البشري.

لقد عجزتُ عن إيجاد الإنسان وسط دهاليز حُب «الأنا» وتراكمات السنين في أروقة خيالات مستنقع أوهام تشخيصهم على أنهم بشر، إدعاءات مجرد إشاعات عن امتياز ينسبه كلٌّ إلى نفسه بادعاء كاذب، إدعاء منافق إدعاء مخالِف للطبيعة، ضد الطبيعة على أنه (أعظم مخلوقات الله)، مسكين أنت، ألا تعلم بأن العظمة صفة تُكتسب بالجِدِّ والعمل وبحب العطاء وليست مجرد أقاويل تُحكى عن بطولات زائفة تؤلفها وتنتجها وترويها عقولٌ تافهة، بألسنة تلوك الكلمات وتقذف بها كزعاف أفعى ترشق سمَّها، كلسعة عقرب، كنقيق غراب إن تكلَّم.

ويحك أيها الإنسان، بالله تريَّث، فإنك لست سوى مجرد حِملٌ زائد على عاتق الحياة، فالحياة أعمق من مجرد أيام

تقضيها أو مواقف تسجلها لحسابك في محض صدفة، أو انتصارات منسوبة إليك بتلفيق كذبة. الحياة دين ودين وعاطفة ومودة، والإنسان الإنسان، كتلة من المشاعر والأحاسيس والعواطف الحُرَّة التي لا تُعطى بمواصفات معينة ولا توهَب تحت إشراف مصالح بحتة أو بأحكام مسبقة، وليست مُعلنة، وتضمر الشر في خبايا النوايا، والأذى وتهشيم معنى الإنسانية، وتهميش الحياة وتحجيم مستوى العقل الذي هو ميزة وأُعطيَ لنا.

إننا بشر، خُلقنا لنتقدَّم، ونخطئ، ونتعلم من أخطائنا، ولكن يجب الاعتراف أولاً بأننا أخطأنا.

عقولنا مرنة، فلماذا نجمِّدها؟ لماذا نقيِّدها بسلاسل الجهل وعدم تحمل المسؤولية؟

ليس عيبًا أن نعترف بأخطائنا، ونحاول تصحيحها... ليس عارًا تبديل آرائنا إن لم تكن صائبة. كل إنسان يستحق فرصة ثانية، يستحق عدة فُرص؛ شرط التقدم والتعلم والتطور.

لقد خُلقنا بشرًا، نمتلك الكثير من الصفات التي تميِّزنا عن بقية المخلوقات، إنما ليست للأذية، أو لإثبات مَنْ منا الأقوى، فالقوة ليست بالعضلات، وإنما قوة الإنسان الحق تكمن بما يمتلك في داخله من تسامح وطيبة وقبول الآخر رغم جميع الاختلافات. فكلنا لدينا مشكلات، وتُصادِفنا

الكثير من الصعاب لكن هذا لا يعطينا الحق للتصرف بعدوانية. فمعدن الإنسان الحقيقي يظهر عندما يتعرض لمحنة، وطريقة تصرفه هي التي تُحدِّد هويته، وكيفية تعاملنا مع الشدائد هي ما تُحدِّد مصيرنا.

إنني؛ وبعد عدة محاولات المُضنيّة لإيجاد مَن يُشبهني، وبعد أن باءت جميع محاولاتي بالفشل؛ أعلنتُ استسلامي، وقررت العكوف عن التفتيش، والتوقف عن المحاولة، فلم أعُد قادرة على متابعة السعي، ولم أعد بوارد الانتظار أكثر.

كلنا نمتلك العقل والفكر، إنما الذكي وحده يتصرف بحكمة.

الأزمات المتوالية المتلاحقة الكثيرة؛ قد أتعبتني، وبما أن الأيام تمرُّ عليَّ مثقلة بالهموم والواجبات، وبما أن الأوضاع ليست مستقرة كالسابق، وغلاء المعيشة والسعي الدائم والمضني من أجل لقمة العيش وتأمين أدنى مستوى من الحياة الكريمة لي ولأولادي مع التأكد من عدم حرمانهم من أي شيء والسعي الدؤوب دائمًا لجعلهم مكتفين، نفسيًا وماديًا، كان مجرد التفكير باحتمالية إحضار قطة إلى البيت، مستحيل، وقد يكون ضربًا من الجنون. لكن الجنون أصابني، وبدل القطة، أصبح عندي أربع، فقد أنجبت قطتي ثلاثة ذكور، وبعدها كان لا بد لي من إحضار (حُب) وإنقاذه من الشارع ومخاطره، وبعدها هذا الصغير الذي ما طاوعني ضميري على تركه.

وها أنا اليوم، لا أجد دقيقة من الوقت للتفرغ لنفسي، فوقتي ومجهودي ينصبَّان في البيت، بين أولادي العشرة، لتلبية جميع احتياجاتهم والاهتمام بهم على أكمل وجه، والاعتناء بكل ما له علاقة بهم، وهنا تكمن سعادتي أنا، بالفرح الذي أحسّه مع كل طلّة فجر، مع أولى إشراقة شمس في كل يوم، إلى حين عودة القمر، وتغمرني موجات من المودة لرؤية (حُب) ينمو ويكبر في ظلي، وأشعر بأن السماء تباركني وتتدبر أمري، فقد توكلتُ على الله وهو عوني ونصيري في كل شيء.

أملي في هذه الحياة يتجلَّى بوجود صغاري قُربي، وسِرُّ سعادتي ونجاحي يكمن بقربهم مني، وكل أحلامي تتمحور حولهم، وآمالي تتحقق بهم.

في السابق، يوم قرّرتُ إحضار قطة لابنتي الصغرى في بادئ الأمر، بعد أن ظلَّتْ لمدة طويلة تُلِحُّ وتُلِجُّ عليّ؛ فكَّرتُ مطولاً بالأمر، ودرستُ خطوتي جيدًا من جميع الجهات، فوجود هِرَّة في بيتنا، بين أيدينا، تُشاركنا حياتنا ويومياتنا وتقاليدنا وعاداتنا، وتتقاسم معنا بيتنا وغُرفنا وأسرتنا وأشياءنا، ليس بالأمر السهل. فهي ليست مجرد قطة، وإنما كائنٌ حيٌّ، إنها روحٌ، طفلة.

مِنْ خلال هذا المنطلق؛ وافقتُ حينها، وأحضرتُ لها قطة، وكنتُ أعلم مسبقًا بأنني أنا من ستتحمل جميع

المسؤولية وإن كل الحِمل سيُلقى على عاتقي وحدي، وأنني أنا من سأهتم بكل تفاصيلها ومستلزماتها وجميع احتياجاتها، وقد كنت مستعدة لهذا، فوجود قطة في بيتي بروحها البريئة النقية وحمايتها والاعتناء بها؛ أضاف البركة إلى بيتنا، وأدخل السعادة إلى قلب ابنتي، وزادني إدراكًا وتصميمًا وقوة. وثبَّت عزيمتي من أجل إثبات أن الإنسان يستطيع خلق الظروف المواتية من لا شيء، وأنه بالإدارة يمكنه هزم الصعاب ومواجهة كل العراقيل، وهذا ما علَّمتُه لابنتي: أن تُحبَّ وتحترم جميع مخلوقات الله، وهذا ما أُحدِّث الناس عنه؛ إن كنتم لا تُحبون القطط ولا تهتمون باقتنائها وتربيتها والاهتمام بها، لا بأس، ولا أحد يُجبركم على ذلك، أنتم أحرار بكل تأكيد، لكن لا تؤذوها ، ولا تقوموا بتعذيبها وضربها ورفسها وسرقة أولادها والمتاجرة بها. أفهم بأن بعض الناس لا تميل للقطط وإن بعضهم يخاف منها، إنما ما لا أفهمه هو لماذا يقومون بقتلها. فشريعة الغاب بعيدة كل البُعد عن يومنا هذا ولا تليق بنا، فلماذا بعض البشر مصممون على ممارستها والتعلُق بها؟

يوجد الكثيرون من بيننا ممن لديهم نفوذ وأموال طائلة، وهنالك من هم معدومو الحال والمقدرة، فتجد مَنْ يعيش حياته في عوز، ويحيا كل يومٍ بيومه، شاكرًا ربه على نعمة الحياة التي يعيشها، لأنه يُقدِّر ما معنى وجوده في هذه الحياة، وتراه يعطف على قطةٍ ما ويقسم اللقمة من فمه

بينها وبينه. بالمقابل، ترى ميسور الحال، ينفق أمواله في شراء المفرقعات في الاحتفالات والمناسبات، وكأن الأفراح لا تَتُمّ إلاّ بها، وكأنها تُحيي الموتى في الأطراح، فلا سبيل للاستغناء عنها، وكذا شراء آلاتٍ ومستلزماتٍ لتعذيب مخلوقات الله، كالبواريد والخرطوش ومكينات جلب الطيور، من أجل اصطيادها، وابتكار الطُّرق والأساليب المختلفة للإيقاع بها... كان أحرى بكم صرف أموالكم بما له من منفعة في سبيل المجتمع؛ في سبيل الإنسانية، هنالك الكثير من العائلات المحتاجة، الكثير من الأطفال في الشوارع يشحذون عطف أمثالكم، ويستجدون الرحمة والمعونة أمام أنظاركم، وتغضون عنهم عيونكم، عار عليكم، فأين العدل في قاموسكم؟ وأين المنطق في عقولكم؟، فإن في ضعف من هم من جنسكم، ما رحمتم وتعاليتم بأنفسكم عنهم، فكيف ستشفقون على قطة أو ترأفون بصغرها وضعفها؟ أين مخافة الله فيكم؟

إنني أتطلع للمستقبل بالكثير من التفاؤل، وأضع لأولادي الأولوية وهدفي هو إسعادهم وإدخال البهجة إلى قلوبهم دائمًا، خاصةً في ظل الظرف الراهن إلاّ أن الظروف تتبدل والأحوال تتحول، وما لا أملكه اليوم، قد أحصل عليه في الغد، وما ليس بمقدوري فعله الآن سوف أتمكن منه لاحقًا بإذن الله، فطموحي في هذه الدنيا كبير، و أحلامي لا متناهية وأسعى دائمًا للأفضل، وترتكز خطواتي على التقدم

المستمر، وأتحاشى كثيرًا التراجع، فأنا أخشى الفشل، ولا مكان للتخاذل في قاموسي، ولا مجال للتقاعس هنا، وربِّي يمدني بالقوة اللازمة من أجل الاستمرار قُدمًا لتحقيق ذاتي وتطلعاتي بإنشاء ملجأ للقِطط، بمثابة مأوى، أجمع فيه كل القطط ولا أدع أية قطة وحيدة، شريدة، أو متروكة لمصير غامض مجهول في أحد الأزقة، فمجرد التفكير بمعاناة هذه المخلوقات البريئة يؤرق مضجعي، ولا بد من فعل شيء في هذا الصدد، فمن غير المسموح بعد الآن السكوت عن وضعها أو غض النظر عن بعض البشر ومعاملتهم السيئة والخاطئة بحقها، فالله لا يرضى بمثل هكذا تصرفات وممارسات لأحد مخلوقاته.

إن فكرة الملجأ والتخطيط لإنشائه تُساهِم قليلاً في رفع معنوياتي، والشعور بأن هنالك أمل، يعطيني الدافع من أجل الاستمرار والمحاولة من جديد في كل مرة أُواجَه فيها بالرفض لمساعدتي، أو بتسكير الأبواب في وجهي، أو حتى بالمحاربة والتهجم على دوافعي، أو بمجرد الاستهزاء والسخرية من أفكاري ورغبتي بإخراج كل القطط من الشارع وحمايتها من قساوة الطبيعة وتحجُر قلوب بعض البشر بظل غياب عقولهم وضمائرهم.

إن مكوث (حُب) في العراء لثلاثة أيام متتالية وبحثي عنه طوال الوقت من أجل إنقاذه، والقلق الذي عِشتُه، والخوف العظيم الذي شعرتُ به، والحُزن العميق الذي

غلف قلبي جراء ما حدث لهذا الصغير، كل هذا جعلني أتمسّك أكثر وأكثر وأكثر بالسعي الجدي من أجل إنشاء ذاك الملجأ، فقد ألهمني هذا الصغير وقوى عزيمتي وزادني شجاعة لمواجهة أي صعوبات، كل الصعوبات المحتملة. إني أصلي أن تتبارك خطواتي وأطلب من الله مساعدتي ومؤازرتي وتحقيق حلمي، ومن أجل الحصول على الدعم اللازم من كل مَن لازال يمتلك بداخله القليل من الرأفة، ومن كل الذين لا زالت قلوبهم تنبض بالمحبة والعطف، ومن الذين ما زال في وجدانهم القليل من الضمير ومخافة الله.

••••

في كل دقيقة تمر، أزداد فيها حُبًّا وتعلُقًا بـ(حُب) وبوجوده، فهو يُجسِّد لي الحاجة دائمًا لوجود القوة والعزم والتصرف بحكمة ووعي من أجل استدراك المحتمل في الوقت المناسب، وبالرغم من أنه قلب حياتي راسًا على عقب فيما يختص بالأنظمة التي كنت أعتمدها في السابق والقواعد والقوانين التي كنتُ أسيِّر حياتي في أُسسها وحتى الروتين اليومي الرتيب لي ولقططي والذي اعتدنا عليه في السابق، وأن وجوده في حياتي أجبرني على إعادة تنظيم حياتنا لكي تتلاءم معه ومع حاجته في العائلة كفرد جديد من أفرادها؛ إلا أنه زادني ثقة بقدراتي بأنني أستطيع

خلق المناخ المناسب لي ولأسرتي من أجل النجاح في زيادة مدخول كل فرد على حدة تحقيقًا للاكتفاء المادي أولاً؛ وبالتالي المعنوي طبعًا، كأفرادٍ مُنتِجة في المجتمع، وقد زادني هذا الإحساس ثقةً بنفسي وانعكس هذا بحُب العطاء اللامتناهي وبالمحبة التي تغمر قلبي وتُحرِّك عواطفي.

إن قدومه إلى عالمي قد عزّز موقعي كقبطان لهذه السفينة التي أُبحِر بها في غباب الأيام، مع طاقمٍ يزداد عددًا، وقد قوَّى عزيمتي للتمسك بحقوقي كإنسان من أجل المطالبة بحقوقه وحقوق جميع إخوانه ممن يدّعون مجرد إدعاء، الإنسانية.

في كل صباح، عندما أدخل إلى غرفة (حُب) ويستقبلني بتلك الابتسامة التي أعشقها، وينظر إليّ تلك النظرة الساحرة من تلك العيون الخلابة المُكحلة، ويميل بوجهه الجميل نحوي وكأنه يقول لي: «أُحبكِ يا أُمي، وسعيدٌ بوجودي قُربكِ، وأثق بأنكِ ستحمينني من أي خطر، وبأنكِ لن تقبلي بأن أجوع أو أتألم أو أحزن، وبأنكِ تحبينني وسوف تسامحينني على أخطائي، وتتحملينني في نوبات الغضب التي تنتابني، وأنكِ سوف تعامليننني بالعطف والمحبة شأني شأن جميع إخواني وأخواتي... وإن صادف وزادني اللعب حماسةً وكسرتُ لكِ بعض التُّحف والأواني وحطمتُ ألعابي؛ فإنكِ ستعذرين هفواتي، وأعرف تمام المعرفة بأنكِ ستعتنين بجمال معطفي وبنظافتي، وأعلم

أنكِ تخافين عليّ من كل شيء، ومن أي شيء، وحتى من ذاتي، وبأنكِ لن تتركينني وحيدًا في ليالي الشتاء الباردة، وسُتدفئين جنباتي، وبأنكِ لن تتخلين عني عندما أمرض، أو تطردينني عندما يتقدَّم بيَ العمر، وبأنكِ ستكونين معي في كل خطوة من خطواتي... إنني أُحبكِ يا أمي، لأنكِ أنقذتِ حياتي».

حينها، أزداد تمسكًا به، وأُمجِّد الخالق، وأشكر ربي على بداية يومي الجديد برؤية وجه (حُب) وابتسامته التي توازي عندي حُبَّ الوجود وقيمة الحياة، فأسارع لاحتضانه وتقبيل وجهه وخدّيه، وهو يتعلق بي ويطوِّقني بتلك اليدين الصغيرتين، ويضع رأسه على كتفي بكل اطمئنان، ونخرج إلى الشرفة لمشاهدة شروق الشمس معًا، فها هوذا يوم جديد يبدأ وحظ جديد مؤكّد.

سبحان الله خالق كل هذا الجمال، خالق هذه الروح النقية، بحق هذه الشمس التي تُشرق على كل الكائنات على حدٍّ السواء المُعلقة بين الأرض والسماء ولا تميّز بين صغير وكبير، أو بين رجل وامرأة، أو بين كلب وقطة، أو بين ديك وبطة، أو بين عصفور ونحلة، ولا تُفرِّق بين نحيف أو ممتلئ، بين طويل أو قصير، أو بين غنيٍّ أو فقير. تشرق على البشر وتشرق على الحجر وعلى النباتات والشجر، تشرق هكذا من دون منّيّة من أحد، من دون أي عرفان بالجميل لأحد، فقط تشرق هكذا...

فصباح الخير أيتها الشمس...

صباح الخير أيتها الحياة...

صباح مبارك...

صباح الجمال...

صباح (حُب)

صباح بسمة.

للتواصل مع المؤلفة

email: janananou2018@gmail.com

www.facebook.com/jana.nanu.54

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net